المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أسلمة المعرفة

المبادئ العامة وخطة العمل

تأليف
الدكتور إسماعيل الفاروقي
ترجمة
عبد الوارث سعيد

دار البحوث العلمية

أسلمة المعرفة

المبادئ العامة وخطة العمل

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أسلمة المعرفة

المبادئ العامة وخطة العمل

تأليف
د. إسماعيل راجي الفاروقي
جامعة تمبل، بنسلفانيا

ترجمة
عبد الوارث سعيد
جامعة الكويت

دار البحوث العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

إصدار: المعهد العالمي للفكر الإسلامي
International Institute
of Islamic Thought
323 Bent Road, Wyncote,
Pennsylvania 19095 U.S.A.

نشر: دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع
الكويت - شارع فهد السالم - عمارة الأوقاف
رقم ٤ شقة ٢٨ الطابق الرابع.
ص.ب. ٢٨٥٧ الصفاة - هاتف: ٤١٤٢٢٠
برقياً: دار بحوث كويت

إهداء

الى العلماء المسلمين

الذين شرّفهم الله تعالى في الآيات التالية :

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (٢٩ : ٤٣).

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (٣٥ : ٢٨).

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩ : ٩).

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (٢ : ٢٦٩).

شكر وتقدير

نتقدم بالشكر والتقدير العميقين لكل من ساهم في هذا البحث هيئات كان أو أفراداً:

- «الندوة العالمية للشباب المسلم» و«الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية». و«الجامعة الإسلامية» و«اللجنة الوطنية للهجرة» (إسلام أباد).
- البحوث التي قدمت إلى الندوة الأولى حول «أسلمة المعرفة» والتي تشكل أساس هذه الدراسة، والملاحظات النقدية والاقتراحات التحسينية التي تفضل بها العديد من العلماء داخل الندوة وخارجها.
- المساعدة القيّمة التي أسداها كل من وائل شوكت الخيري ولمياء الفاروقي في إعداد مخطوطة البحث.
- الإسهام السخي من عبد الرحمن بن عقيل.

المحتويات

تمهيد

يسعد أمناء «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» أن يقدموا للعلماء المسلمين في أنحاء العالم هذه الهدية العزيزة. إنها دراسة حول «أسلمة المعرفة»، يعتقدون أنها أنسب هدية يمكن أن تقدم في هذا العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري. إنها ثمرة بحثين حول الموضوع أعدهما رئيس هيئة الأمناء ومدير المعهد بالإضافة إلى ما تزود به عن طريق أكثر من خمسة عشر من علماء الإسلام العالمين ممن شاركوا في حلقة البحث التي عقدت في «إسلام أباد». أقيمت هذه الحلقة، تحت رعاية «الجامعة الإسلامية» في إسلام أباد و«المعهد العالمي للفكر الإسلامي»، في مدينة «إسلام أباد» من شهر ربيع الأول ١٤٠٢ هـ الموافق يناير ١٩٨٢ م.

إن الأهمية الكبيرة لهذه الدراسة، التي تلي هذا التمهيد، تنبع من حقيقةٍ مفادها أن تقدير المرء لواقعه واستفادته من ماضيه وقيامه بالتخطيط ليوجه مسار التغيير نحو الأهداف المرجوة إنما هي الأسس المطلقة لضمان البقاء والازدهار. وإن الحكم الإلهي: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...» (١٣ : ١٢) هو السنة المطلقة للتاريخ.

إن هذه الدراسة لتعلن بقوة أن «الأمة» تعاني من انحراف خطير يتهددها. وتحاول أن تقدم للأمة علاجاً أكيداً يعيد إليها العافية، كما تستحثها إلى الأمام نحو الدور المقدر لها، أن تحمل مسؤولية قيادة العالم:

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ (٢: ١٤٣).

وهذه الاعتبارات تعطي لهذه الدراسة الحق في أن تنال من المفكر المسلم أقصى ما يستطيع من الاهتمام الجاد، وتثير فيه إمكانياته الروحية فيبحث عن الغاية العظمى ويسهم في تحقيقها في المستقبل.

لقد شهد النصف الأخير من القرن الرابع عشر موجة هائلة من الوعي الإسلامي عمت العالم كله، فضلاً عن عديد من الخطوات المهمة اتخذتها أجزاء من هذه الأمة على طريق التحرر الذاتي. ورغم هذه الخطوات إلى الأمام، فإن هذا القرن نفسه قد شهد انتكاسة شديدة تمثلت في اندفاع عام عند المسلمين لتقليد الحضارات الأخرى. هذا الاندفاع لم يحقق هدفه في أي مجال كان، بل إنه نجح في تجريد الطبقة العليا من المجتمع الإسلامي من إسلامها وأن يوهن من عزيمة الباقين. لقد غُشيت الرؤية الإسلامية برؤية أجنبية وفدت إلينا مع الغزاة المستعمرين. ولما رحل المستعمر بقيت هذه الرؤية الأجنبية، بل أصبحت أشد خطراً. وبدا المسلمون لعدة أجيال غير قادرين على التخلص منها. إنك لتراها واضحة في كل مكان: في المؤسسات المستوردة وفي انتشار اللغتين الانجليزية والفرنسية بينهم؛ في تصميم

مكاتبهم وبيوتهم ومدنهم ومن برامجهم الترفيهية؛ في المناهج الاقتصادية والسياسية التي يتبعونها وفيما يعتنقون من أفكار عن الحقيقة والطبيعة والإنسان والمجتمع. وكان العامل الأول في انتشار هذا التصور الأجنبي هو النظام التعليمي، فقد شعبوه إلى نظامين: نعتوا أحدهما بـ «الحديث» والآخر بـ «الإسلامي». هذا التشعيب يعتبر صورة مصغرة لانحطاط المسلمين. وما لم يتم علاج هذا الأمر والتخلص منه، فسيظل يدمّر جهد كل مسلم يبذله لإعادة بناء «الأمة» ولتمكينها من أداء «الأمانة» التي ائتمنها الله تعالى عليها.

في الماضي، حاول كثيرون من كبار الشخصيات الإسلامية أن يصلحوا نظام التعليم الإسلامي وذلك بأن يضيفوا إلى مناهجه الدراسية الموضوعات الأساسية في النظام الأجنبي. ويعتبر السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده أبطال هذه المحاولة. أما جمال عبد الناصر فقد وصل إلى ذروة هذه الاستراتيجية عام ١٩٦١ حين حوَّل الأزهر ـ أعظم حصن للتعليم الإسلامي ـ إلى جامعة «حديثة». لقد استقرت جهود هؤلاء، وجهود الملايين من أمثالهم، على فرضية أن تلك الموضوعات التي تدعى بـ «الحديثة» لا ضرر فيها وأنها يمكن أن تمد المسلمين بالقوة، وقليلاً ما أدركوا أن هذه الدراسات الأجنبية من «إنسانيات» و«علوم اجتماعية»، وحتى «العلوم الطبيعية» كذلك، ما هي إلا واجهات لنظرة متكاملة للحقيقة وللحياة وللعالم وللتاريخ ـ نظرة غريبة بنفس الدرجة عن نظرة الإسلام. وقليلاً ما عرفوا عن العلاقة الدقيقة والضرورية التي تربط مناهج البحث في تلك الدراسات كما تربط نظرياتها في الحقيقة والمعرفة بنظام القيم لهذا العالم الأجنبي. ومن

هنا كان عقم إصلاحاتهم. فمن ناحية ظلت الدراسات الإسلامية الآسنة على حالها لم تمس؛ ومن ناحية أخرى لم يؤد العلم الجديد الذي أضيف إلى إنتاج أي مهارة متميزة كتلك التي ينتجها في موطنه الأصلي. الذي حدث هو العكس، إذ جعل المسلمين عالة تتبع البحث الأجنبي والقيادة الأجنبية. لقد نجح - تحت تأثير مزاعمه الطنانة في الموضوعية العلمية - أن يقنعهم بأن فيه الحق الذي يعلو، بل يناهض، مقررات الإسلام التي وسمها أنصار التقدم المتحمسون بالمحافظة والتأخر.

لقد آن الأوان لكي يتبرأ علماء الإسلام من أمثال هذه الطرائق السطحية والضارة في الإصلاح التعليمي. إن إصلاح التعليم المرجو منهم هو صبغ المعرفة الحديثة ذاتها بالصبغة الإسلامية، وهي مهمة تشبه في خصائصها - وإن كانت أرحب مدى - ما اضطلع به أسلافنا الذين هضموا معارف عصرهم وأنتجوا لنا تراثاً إسلامياً ثقافياً وحضارياً. فالدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية والطبيعية يجب - كمقررات دراسية - أن تُتَصَوَّر وتُبْنى من جديد وأن تقام على أسس إسلامية جديدة وتناط بها أغراض جديدة تتفق مع الإسلام. يجب أن يصاغ كل علم صياغة جديدة بحيث يجسّد مبادىء الإسلام في منهجيته واستراتيجيته، وفي معطياته ومشاكله، وفي أغراضه وطموحاته. يجب أن يعاد تشكيل كل علم كي يصبح ملائماً للإسلام عبر محور أساسي هو «التوحيد» بأبعاده الثلاثة: **البعد الأول**: هو وحدة المعرفة التي يجب بمقتضاها أن تسعى كل العلوم إلى طلب معرفة الحقيقة بمنهج عقلي موضوعي نقدي. وهذا سوف يريحنا وإلى الأبد من الزعم الذي يقسم العلم إلى «عقلي» و«نقلي» بما يوحي بأن الثاني غير

عقلي؛ أو يقسمه إلى دراسات «علمية ومطلقة» وأخرى «اعتقادية نسبية». **والبعد الثاني**: هو وحدة الحياة والتي بمقتضاها يجب أن تأخذ كل العلوم في اعتبارها الطبيعة الهادفة للخلق وتعمل على خدمتها. وهذا سيقضي وإلى الأبد على الزعم القائل بأن بعض العلوم عظيم القيمة وبعضها محايد أو عديم القيمة. أما **البعد الثالث**: فهو وحدة التاريخ التي يجب بمقتضاها أن تعترف كل العلوم بأن النشاط الإنساني كله ذو طابع اجتماعي أو مرتبط بـ «الأمة»، وأن تعمل على خدمة أهداف الأمة في التاريخ. وهذا سوف يقضي على تقسيم العلوم إلى «فردية» و«اجتماعية» مُبْرزاً ـ وعلى الفور ـ جميع العلوم إنسانية الطابع وذات ارتباط بالأمة.

ومما لا ريب فيه أن الإسلام ملائم لكل جوانب التفكير والحياة والوجود. وهذا التلاؤم يجب أن يظهر بوضوح تام في كل علم. فالكتب الدراسية المستخدمة في كل علم يجب أن تكتب من جديد بحيث تضع هذا في موقعه كجزء تكاملي من الرؤية الإسلامية للحقيقة. بل يجب أن يتلقى المدرسون المسلمون تدريباً على كيفية استخدام الكتب الدراسية الجديدة وأن يعاد تشكيل جامعات المسلمين وكلياتهم ومدارسهم بحيث تستأنف قيادتها الرائدة في تاريخ العالم. لقد كانت «المدرسة الإسلامية»، التي استمدت حياتها من رؤية الإسلام هذه، هي التي أوجدت لنفسها أوقافاً هي التي أعطتها شخصيتها القانونية المشتركة واستقلالها؛ مما جعلها نموذجاً تحتذيه جامعات باريس واكسفورد وكولون في القرن العشرين. كذلك فإن هذه الرؤية الإسلامية هي التي جعلت «المدرسة الإسلامية» رائدة في كل مجال من مجالات البحث الإنساني، وجعلتها القالب الذي تصاغ فيه

الشخصية الإنسانية وخصائصها والمخطِّطَ لكل إنجازات الأمة في الثقافة والحضارة. كانت هذه «المدرسة» تراعي برنامج الإسلام الذي يبدأ يومُه بصلاة الفجر وينتهي بصلاة العشاء. وكان نشاطها التعليمي عملية معايشة يتعايش فيها الطالب والمعلم بصفة دائمة ويعملون معاً وليس أمامها إلا هدف واحد ـ هو تطبيق سنن الله في الخليقة. كان منهجها التربوي يقوم على شخصية الشيخ المفعمة بالتقوى والتلميذ الذي عليه أن يحاكي شيخه. وكان افتتاحها بإلباس الشيخ تلميذَه «العمامة» (وهي أصل القبعة والرداء اللذين يلبسان في حفل التخرج في الوقت الحاضر) وذلك رمزاً إلى الثقة الكاملة التي يجب أن يتكلم بها التلميذ بإذن شيخه ونيابة عنه. كانت مستويات التعليم في أعلى درجة وذلك نظراً للخطورة البالغة لوضع كرامة الشيخ وسمعته في يدي الطالب. كان الوصول إلى هذا «الإحسان» ممكناً لأنه قام على أساس الرؤية الإسلامية، ولأن العزيمة والتفاني في طلب الحقيقة كانا ممحّضين لله وحده.

ومع هذا، وعلى الرغم من كل هذا، فقد وجد المسلمون أنفسهم في مطلع القرن الخامس عشر الهجري محاصرين بطوفان من الطلاب، وليس في أيديهم مخططات لنظام تعليمي ينمو نمواً طبيعياً، وبانفجار في المعرفة على كل الجبهات مع انعدام المخططات التي تمكن الأساتذة والمؤسسات التعليمية من مواجهته بنجاح. والنتيجة أن العالم الإسلامي استمر يرسل إلى الغرب أعداداً متزايدة من شبابه ليتعلموا ويتدربوا، ولكنه ظل مع ذلك يعاني فقده لهم نتيجة «هجرة الأدمغة». وزيادة في المأساة، كان مطلع القرن الخامس عشر الهجري صدمة للضمير الإسلامي إذ

زامنته الحرب الدائرة بين العراق والجمهورية الإسلامية في إيران، وغزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان وغزو إسرائيل للبنان وضم مرتفعات الجولان ومخططات ضم فلسطين كاملة وحروب الصحراء الغربية المستمرة واستمرار احتلال وضم كشمير وبنجلادش واضطهاد الشعب المسلم في الهند (وهم يشكلون أكبر أقلية عرفها التاريخ). أمرّ من هذا، أن العاملين لإنهاض المسلمين أصبحوا على مستوى العالم هدفاً للاتهام والاضطهاد والتشويه. وأصبح مستقبل الإسلام نفسه في خطر.

كل هذه الظواهر لفّت «الأمة» في ظلمة وكآبة. وليس ثمة موقف عصيب إلى درجة المأساة أكثر من أن يصبح مفكرو «الأمة» وكل همهم أن يركزوا فكرهم في تشخيص دائها والبحث عن علاج له. إن صرخة الجهاد «الله أكبر» لم تكن يوماً مطلباً ملحاً في التاريخ الإسلامي على المستوى الفكري أكثر منها اليوم.

عسى أن ينهض مفكرو «الأمة» ويرتفعوا إلى مستوى التحدي! أسأل الله تعالى أن يَحُفَّهم دائماً بهدايته، وأن يوفقهم إلى أن يحققوا في هذا المجال ما يرضي الله تعالى ورسوله (ﷺ) وجميع المؤمنين.

إسماعيل راجي الفاروقي
مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

وينكوت، با.
ذو الحجة ١٤٠٢ هـ

أسلمة المعرفة

أولاً : المشكلة

(أ) اعتلال الأمة

تقف الأمة الإسلامية اليوم في مؤخرة ركب الأمم. ولم يشهد هذا القرن أمة تعرضت لمثل ما تعرضت له الأمة الإسلامية من هزيمة وإذلال. لقد هزم المسلمون وقُتِّلوا وسلبت منهم أوطانهم وثرواتهم، بل وأرواحهم وآمالهم. لقد خدعوا فاستعمروا واستغلوا؛ وفتنوا في عقيدتهم وأدخلوا بالقوة أو بالرشوة في أديان أخرى. وقام أعداؤهم من الخارج مستعينين بعملائهم في الداخل فحولوهم إلى علمانيين أو عبيد للغرب وجردوهم من إسلامهم. كل هذا حدث في كل دولة وكل ركن من العالم الإسلامي. ورغم أن المسلمين كانوا ضحايا الظلم والعدوان في كل ناحية، فقد ساهمت كل الأمم في تشويه صورتهم وتلطيخ سمعتهم. إن صفحتهم هي أشد الصفحات سواداً في عالم

(*) اشترك المترجم مع الأستاذ فؤاد حمودة في ترجمة بحث موجز للمؤلف حول هذا الموضوع ونشرت الترجمة في مجلة المسلم المعاصر ٣٢/٤ (١٤٠٢ هـ) ص ص ٩ - ٢٣. وقد استأذن المترجم زميله الذي شاركه في الترجمة أن يستعين بها في ترجمة هذه الدراسة الموسعة.

اليوم. وقد دأبت وسائل الإعلام في أيامنا هذه على تصوير «المسلم» على أنه عدواني مخرب مخادع مستغل قاسٍ متوحش متمرد إرهابي همجي متعصب متحجر الفكر متخلف سقيم الرأي. وقد أصبح لذلك محل الكراهية والاحتقار من غير المسلمين جميعهم سواء أكانوا متقدمين أم متخلفين، رأسماليين أم ماركسيين، شرقيين أم غربيين، متحضرين أم همجيين. ولا يعرفون عن العالم الإسلامي إلا ما فيه من صراعات وانقسامات واضطرابات وتناقضات وحروب تهدد السلام العالمي، وإلا ما فيه من ثراء فاحش وفقر مدقع ومجاعات وأمراض وبائية. إن «العالم الإسلامي» في نظر الناس اليوم هو «الرجل المريض»؛ ويريد الأعداء أن يجعلوا العالم يقتنع بأن «دين الإسلام» يقف وراء كل هذه الشرور. والأمر الذي يجعل هذه الهزيمة وهذا الإذلال والتشويه أموراً لا تطاق أبداً أن تعداد هذه الأمة يفوق البليون وأنها تملك أوسع رقعة من الأرض المتصلة، وأغناها، وأن إمكانياتها من الموارد البشرية والمادية والاستراتيجية أعظم من غيرها، وأن عقيدتها (الإسلام) دين متكامل وصالح، إيجابي وواقعي.

(ب) الأعراض الرئيسية للمرض

١ ـ على الصعيد السياسي:

«الأمة» منقسمة على نفسها. لقد نجحت القوى الاستعمارية في تفتيت «الأمة» إلى نحو خمسين وحدة سياسية أو أكثر، وجعلت كلا منها عدواً للأخرى. وقد أقيمت الحدود بين الدول الإسلامية بحيث تخلق خلافات دائمة بين كل دولة والدول المجاورة لها.

والأعداء في مؤامراتهم يستغلون باستمرار مناطق الخلاف هذه لإثارة أسباب التنافر والعداوة. أما داخلياً، فإن كل دولة إسلامية منقسمة بدورها على نفسها، لا وئام بين عناصر شعبها، وتجد من بينها مجموعة معينة وضع السادة المستعمرون السلطات في يدها. وليس هناك دولة أعطيت الوقت أو السلام أو الموارد اللازمة لتحقق التكامل بين أبناء شعبها وتكوِّن منهم وحدة واحدة؛ ولم يسمح لأي دولتين أن تتحدا لتكونا معاً وحدة أكبر. ولكي يصبح الوضع أكثر سوءاً استقدم العدو عناصر أجنبية إلى العالم الإسلامي كي يضمن وجود صراع مستمر بينهم وبين أهل البلد؛ أو عمل على إدخال بعض أهل البلد في المسيحية الغربية التي تجعلهم بالضرورة أجانب بالنسبة إلى مواطنيهم المسلمين؛ أو دسّ بين غير المسلمين من المواطنين فكرة الشعور بشخصية متميزة مما يضعهم في مواجهة مع المسلمين. وأخيراً، خلق العدو كيانات «أجنبية» داخل جسم الأمة وجعل منها دولاً معادية بهدف توجيه طاقات المسلمين بعيداً عن البناء واستنزافها في حروب لا طائل وراءها، أو لتكون قاعدة يستخدمها الاستعمار إذا ما قرر أن يحتل تلك البلاد ثانية من أجل مصالح القوى الاستعمارية الاقتصادية والاستراتيجية. ليس من بين الدول الإسلامية دولة تشعر بالأمن الداخلي ولا بالأمن الخارجي. إن كل حكومات الدول الإسلامية تنفق الجزء الأكبر من مواردها وطاقاتها لتأمين قوتها في الداخل وسلامتها من الخارج، ولكن دون فائدة.

قامت الإدارة الاستعمارية بتحطيم كافة المؤسسات السياسية في كل بلد على امتداد العالم الإسلامي كله باستثناء عدد قليل من الأقطار وجد العدو أن حكامها على استعداد للتعاون معه. وحين

حان انسحاب الإدارات الاستعمارية عهدت بالسلطة إلى «الصفوة» من أهل البلد ممن كان قد سبق تعبيدهم وصبغهم بالصبغة الغربية. أما القوة الحقيقية فقد بقيت في أيدي العسكريين وحدهم فعدوا على السلطة واغتصبوها في أول فرصة سنحت. إن المسلمين ـ في أغلب الحالات ـ يحكمهم العسكر وذلك لخلو مجتمعاتهم من التشكيلات السياسية القادرة على إدارة جهاز الحكم، أو على تحريك الجماهير ودفعها إلى المقاومة أو على قيادتها للقيام بعمل سياسي بناء، أو حتى على العمل في تعاون وذلك أضعف الإيمان.

٢ ـ على الصعيد الاقتصادي:

الأمة غير نامية بل ومتخلفة. أغلبيتها الساحقة في كل مكان أميون. إنتاجها من السلع والخدمات أقل كثيراً من الاحتياجات التي تشبع دائماً عن طريق البضائع الجاهزة المستوردة ـ القوى الاستعمارية. وحتى في مجال المتطلبات الأساسية للحياة من أطعمة وملابس وطاقة وآلات لا نجد دولة إسلامية تستطيع الاعتماد على نفسها. ومن الممكن أن تواجه أي من هذه الدول مجاعة إذا ما قررت القوى الاستعمارية لأي سبب أن توقف هذه التجارة الظالمة معها. في كل مكان تعمل المصالح الاستعمارية على خلق رغبات ومطالب استهلاكية لمنتجات الاستعماريين، بينما احتياجات المسلمين إلى آلات إنتاجية لا يلقى إليها أحد بالاً. وفي ميدان المنافسة مع المنتجات المحلية للمسلمين ينجح الاستعماريون في طردها من السوق. وإذا ساعد الاستعماريون في تنمية صناعة ما في بلاد المسلمين فإنهم يجعلونها معتمدة على ما لديهم من مواد خام أو مصنّعة لا تتوفر إلا عندهم، فبذلك تصبح

حاضعة لهم تعمل تحت رحمتهم وتخدم أغراضهم الاستعمارية. وفي معظم الأحوال لا يخطط للصناعات الجديدة في بلاد المسلمين لتواجه الاحتياجات الأساسية، وإنما لتواجه المتطلبات الكمالية التي خلقتها وسائل الدعاية الاستعمارية المكثفة. إن الاكتفاء الذاتي للمسلمين في مجال الزراعة هو العدو الأول للاستعماريين، إذ هو الأساس الذي لا غنى عنه ليتمكنوا من مقاومة أي مخطط استعماري في الوقت الراهن وفي المستقبل. في كل مكان تجد الفلاحين المسلمين يُقْتَلَعون من قراهم نتيجة الوعود الزائفة بحياة أفضل في المدن، وإغراء الوظائف المؤقتة في مشاريع لا أمان لها كالبناء وصناعات السلع الاستهلاكية ونتيجة لاستغلال مُلّاك الأراضي وجامعي الضرائب. إنهم يهاجرون إلى العواصم ليعيشوا في مدن من الأكواخ تعتمد أساساً على الأطعمة المستوردة، وهم مستعدون للسير وراء أي مهرّج يقودهم.

إن كنوز البترول التي شاء الله أن يمنحها لبعض الأقطار الإسلامية لم تصبح النعمة التي كانت ترتجى. هذه الثروة التي وجدت غالباً في البلاد القليلة السكان قد دفعت الحكومات إلى انتهاج سياسة عنصرية وإلى تبديد الثروات في تطوير بلادهم تطويراً «تجميلياً» زائفاً. والحق أن هذه الثروات طائلة إلى حد أن مثل هذه الاهتمامات لا يمكن أن تستنفدها. ومن هنا فإنها توجه نحو استثمار «سهل ومضمون» في أسواق المال غير الإسلامية، وهناك تساعد أعداء الإسلام ليصبحوا أكثر قوة. وذلك لأن عدم الاستقرار السياسي في كل بلاد العالم الإسلامي يجعل من أي تخطيط أو استثمار طويل الأمد مخاطرة كبيرة لا يقدم عليها أي مستثمر حريص. وعلى هذا، فإن مناطق العالم الإسلامي التي

تتمتع بإمكانيات تؤهل لتطور مهم في الزراعة أو في الصناعة تبقى محرومة من رؤوس الأموال المموّلة؛ إن رؤوس الأموال التي يمكن أن تطور هذه الإمكانيات إلى رخاء حقيقي لصالح «الأمة» كلها فإنها توجه إلى مواقع أخرى.

٣ ـ على الصعيد الثقافي والديني:

إن انحطاط المسلمين الذي دام قروناً قد أدى إلى انتشار الأمية والجهل والخرافة بينهم. وهذه الشرور قد أدت بالمسلم العادي إلى أن «ينعم» بعقيدة قائمة على التقليد الأعمى وأن يتجه نحو الحرفية والشكلية القانونية، أو أن يُعَبِّد روحه **لشيخه**. وهذا بدوره قد ربى فيه غير قليل من الاستعداد للانهزام. فحين فرض العالم الحديث نفسه عليه أصيب بالذعر نتيجة لضعفه العسكري والسياسي والاقتصادي، فسارع لذلك إلى ضرب من الإصلاح الجزئي ظناً منه أن ذلك سيعينه سريعاً على تدارك ما ضاع منه من أساس. فاتجه ـ دون وعي منه ـ إلى تقليد الغرب، أغراه بذلك نموذج التجربة الغربية الناجح وناصحوه من الغربيين أو المستغربين. وفي المناطق الخاضعة للإدارة الاستعمارية فرضت عملية «التغريب» فرضاً وعزّزت بكل ما تحت أيدي الحكام من وسائل متاحة. وسواء أكان ذلك عن حسن نية أو عن سوء نية، فقد كان الزعماء المسلمون دعاة التغريب لا يعلمون أن تلك البرامج ستؤدي ـ عاجلاً أو آجلاً ـ إلى تعريض الدين الإسلامي وثقافة شعوبهم للخطر. إن الروابط بين مظاهر الإنتاج والقوة الغربيين من ناحية والأفكار الغربية عن الله والإنسان، عن الحياة والطبيعة والعالم، وعن الزمان والتاريخ من ناحية أخرى، هذه الروابط كانت من الدقة بحيث لم يلحظوها. أو يعقلوها في غمرة

تعجلهم. والنتيجة أن قام نظام تعليمي علماني يلقن القيم والمناهج الغربية. وسرعان ما بدأ يصب في نهر المجتمع أجيالاً من الخريجين الجاهلين بتراثهم الإسلامي. وقد صاحب هذا الجهل شك من حُرّاس التراث، أعني «العلماء»، الذين كانوا حسني النية على الرغم من التراثية الجامدة أو الحرفية أو الشكلية القانونية أو الصوفية التي نزعوا إليها. وهكذا بدأت الفجوة تتسع بين صفوف «الأمة» لتقسّمها ما بين دعاة للعلمانية والتغريب في جانب ومناهضين للعلمنة من جانب آخر. وقد عنيت القوى الاستعمارية بالوضع بحيث أصبحت الفئة الأولى هي صانعة القرار في المجتمع.

أصبح كل شيء إسلامي هدفاً للهجوم سواء على أيدي الاستعماريين مباشرة أو على أيدي أدواتهم من المواطنين. ولم ينج من هذا الهجوم حتى النص القرآني أو صدق الرسول (ﷺ) وسنته أو كمال «الشريعة» أو أمجاد إنجازات المسلمين في ميادين الثقافة والحضارة. كان الهدف هو غرس الشك في ثقة المسلم بنفسه وبأمته وبعقيدته وسلفه الصالح وذلك لتدمير وعيه الإسلامي وإفساد شخصيته الإسلامية وجعله نتيجة لذلك أكثر خضوعاً تعوزه القدرة الروحية اللازمة للمقاومة. وعوضاً عن ذلك ملأ الاستعماريون وأدواتهم حياة المسلم اليومية بما يصبغه بصبغة الثقافة الغربية. فالصحف والكتب والمجلات والإذاعة المسموعة والمرئية والسينما والمسرح والمواد المسجلة ولوحات الإعلانات واللافتات الضوئية، كلها تمطره يومياً بوابل من تلك المؤامرات. لقد صارت الحكومات الإسلامية تفتخر بما لديها من شوارع واسعة في عواصمها مرصعة بالعمارات ذات الشقق أو المكاتب

الفخمة على الطراز الغربي، وذلك دون أن يشعروا بالخجل من الفساد السياسي والانحطاط الخُلقي الذي ملأ مدنهم وقراهم. صارت العلية من المستغربين يترددون على الصالات العامة ليشاهدوا ويستمعوا إلى فيلم أو «أوبرا» أو حفلة موسيقية أو «دراما»، على حين يقرأ عنها أبناؤهم وبناتهم في المدارس والكليات العلمانية أو التبشيرية دون أن يدركوا تناقض كل هذا مع كل ما يفكرون فيه أو يؤدونه. فأولئك الذين أكملوا «تغريب» أنفسهم من بينهم وقفوا في غرابة ضد بيئتهم وأرضيتهم الإسلامية. أما الثقافة الإسلامية المتكاملة ووحدة النهج الإسلامي للحياة فقد تحطم في ذواتهم، في فكرهم وعملهم، في بيوتهم وعائلاتهم. وبكل وقاحة أدخلت المؤسسات والتقاليد الاجتماعية الغربية. فبدلاً من أن تسمو النساء المسلمات بأنفسهن إلى ذرى الفضيلة والفعالية في المجتمع كما أراد لهن الإسلام، إذْ بهن يتهالكن على مظاهر الانحطاط الغربي: العري المتزايد والتبرج، الاستقلال الاقتصادي بهدف التحلل الفردي، الانكباب الأناني على الملذات والتهرب من الواجبات التي تفرضها مطالب الحياة المتزايدة.

لا أثر في عواصمنا لفن المعمار ولا لفن تخطيط المدن الإسلاميين. مراكزنا الحضرية التي تتورم بسرعة تكرر كل الأخطاء والنقائص التي وقعت فيها المدينة الغربية وهي تتعرض لتجربة الثورة الصناعية قبل قرنين من الزمان، وكأننا أصبحنا عاجزين تماماً عن الاستفادة من أخطاء الآخرين. بيوتنا وما فيها من أثاث وتنسيق أينما هي مزيج غريب من كل الأساليب مما يعكس اضطراب أفكارنا عن هويتنا وخصائصنا.

وباختصار، لقد نزل المسلم بنفسه إلى درك الهمجية وذلك على الرغم من ادعائه غير ذلك إلى حد صبغ نفسه بصبغة «الغرب». لقد أصبحت حياته خليطاً من أساليب شتى ومبتوتة الصلة بماضيه. لقد جعل من نفسه شيئاً لا هو بالإسلامي ولا هو بالغربي، جعلها «مسخاً ثقافياً» للعصور الحديثة.

(ج) منبع الداء

ليس هناك أدنى ريب في أن مركز الداء ومنبعه في هذه الأمة إنما هو النظام التعليمي السائد. إنه التربة الخصبة لتربية العلل. في المدارس والكليات تولد وتؤيّد عملية تغريب النفس عن الإسلام: عن تراثه وأسلوبه. إن النظام التعليمي هو المعمل الذي فيه يعجن ويُشَكّل الشباب المسلم، وهناك يصاغ وعيهم في قالب هو صورة ممسوخة للغرب، وتنفصم الرابطة بين المسلم وماضيه وتوضع في وضع حرج، رغبته الطبيعية في التطلع لمعرفة تراث أسلافه. ونتيجة للشكوك التي بثها هذا النظام في أعماق وعيه تصاب بالتبلد رغبته في أن يقف مع أسلافه على أرض مشتركة لينطلق منها نحو بعث للإسلام جديد وملائم للعصر.

١ ـ الوضع الراهن للتعليم في العالم الإسلامي:

التعليم في العالم الإسلامي في أسوأ حالاته على الرغم من التوسع الهائل الذي تم حتى الآن. أما فيما يتعلق بـ «أسلمة التعليم» فلم تكن المدارس والكليات والجامعات ـ التقليدية منها والعلمانية ـ بأشد جرأة مما هي عليه اليوم في الدعوة إلى مبادئها اللاإسلامية، كما أن الأغلبية الساحقة من الشباب المسلم لم تكن

في يوم من الأيام أكثر افتتاناً بهذه المبادىء منها اليوم. ولما كان النظام التعليمي العلماني قد نشأ في ظل الإدارات الاستعمارية فقد احتل مساحة هائلة من الساحة وأبعد عنه النظام الإسلامي. ظل التعليم الإسلامي في جملته قائماً على الجهد الذاتي الفردي محروماً من الاستفادة من الاعتمادات المالية العامة. وحيثما توفرت تلك الاعتمادات فإن متطلبات «العلمنة» كانت تفرض نفسها باسم الحداثة والتقدم. كان هذا يؤدي إلى تقسيم المنهج الدراسي إلى شعبتين متقابلتين بل متعارضتين ـ تدعى إحداهما «إسلامية» والأخرى «حديثة» (كذا!)، معتبرين الأزهر هو النموذج التقليدي. فأما الشعبة الإسلامية فتبقى على حالها دون تغيير بدعوى المحافظة ومن أجل مصالح مكتسبة، من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن العلمانية تخطط لإبعاد التعليم الإسلامي عن الاحتكاك بالواقع وبالتطورات الحديثة وذلك حتى لا يشكل خريجوه عناصر منافسة لخريجي المعاهد العلمانية. كل هذا خَطَّط له دهاقنة الاستعمار بعد الدرس والتمحيص. أما الدفعة الكبرى للنظام العلماني فقد جاءت بعد الاستقلال إذ تَبَنَّتْهُ الدولة طريقاً لها ومنهجاً وصبّت فيه الاعتمادات المالية العامة، بل وأَغْرَقَتْ من هذا المنهج العلماني بدعوى القومية والوطنية. إن سيادة قوى «التغريب» و«العلمانية» وما ينتج عن ذلك من إبعاد المدرسين والطلاب عن الإسلام، كل ذلك لا يزال يعمل عمله في الكليات والجامعات بكل قوة ولم يقم أحد بأي عمل يكبح جماح هذا الانحراف. الحق أن الوضع الآن أسوأ مما كان عليه أيام الاستعمار. زمانئذ كانت هناك روح المقاومة والبحث عن التحرر وعن حل إسلامي تفعل فعلها في كل

النفوس تقريباً. أما الآن، فقد سادت روح الاستخفاف والبلادة وانعدمت الثقة في كل القيادات، ومرَدّ ذلك في الجملة إلى الوعود الزائفة المتكررَة التي لا يعقبها سوى الخيبة وإلى النماذج السيئة التي يراها الناس في أولئك القادة المُفْلِسين أخلاقياً. وليس هناك حكومة إسلامية ولا إدارة جامعية ولا مؤسسة خاصة تفعل أي شيء لعلاج أخلاقيات الشباب المنهارة، أو لإنقاذهم من هذا التعليم الذي لا يزال يعمل على سلخهم من إسلامهم. إن برامج الإنشاءات الضخمة في الدول الغنية، وما يستتبع ذلك من توسع في أعداد الطلاب والكليات والإمكانيات المساعدة، إنما توجه كلها لخدمة قضية العلمانية. وما أقلّ ما يُوَجّه من تلك الاعتمادات لإحداث «تطور» حقيقي، أعني تحسين الصبغة الإسلامية للتعليم وتوجيه الطلاب والهيئة التدريسية توجيهاً إسلامياً. في كل مكان نجد أن نموذج التعليم الغربي هو ما يتسابق إليه الجميع في سرعة مذهلة.

٢ ـ انعدام الرؤية:

إن المحصلة النهائية لذلك ليست النموذج الغربي المنشود، وإنما صورة مهزوزة منه، مهما تكن الدعاوى الكثيرة التي تزعم غير ذلك. إن النموذج الغربي في التربية ـ شأنه شأن النموذج الإسلامي ـ يقوم أساساً على رؤية محددة، ولكنها مباينة للرؤية الإسلامية، وعلى عزيمة تنفث فيه الحياة ليحقق هذه الرؤية. إن المباني والمكاتب والمكتبات والمختبرات وفصول الدراسة والقاعات الكبيرة التي تعج بالطلاب ليست سوى أدوات مادية لا قيمة لها بدون رؤية واضحة. ومن طبيعة الرؤية أنها لا يمكن أن تقلد أو تستنسخ، وإن كانت مظاهرها الخارجية والعرضية فقط يمكن أن

تقتبس. ولهذا فإن المسلمين في خلال هذين القرنين من التربية العلمانية لم ينتجوا شيئاً يوازي في الإبداع أو الامتياز ما في الغرب - مدرسة أو كلية أو جامعة، أو جيلاً من العلماء المتميزين. والنتيجة الحتمية لغياب هذه الرؤية هي هذه المشكلة المستعصية على الحل - مشكلة انخفاض المستوى في مؤسسات العالم الإسلامي. إن البحث الأصيل عن المعرفة لا وجود له دون روح تبعث فيه الحياة. وهذه الروح هي بالذات ما لا يمكن اقتباسه، وذلك لأنها تتولد من الرؤية الواضحة للنفس وللعالم وللحقيقة، أي من الدين. وهذا هو ما يفتقده نظام التعليم في العالم الإسلامي اليوم. إن القيادات التعليمية عندنا ليس لديها بالطبيعة رؤية الرجل الغربي، كما أنها باختيارها - أي بسبب الجهل والخمول والسلبية - لا تمتلك الرؤية الإسلامية. إنها قيادات مادية المنزع ليس لديها ثقافة أو قضية تشغلها. لقد أصبحت القومية هي مصدر الإلهام للجامعات الغربية طيلة القرنين الماضيين، وذلك لأن «الرومانسية» قد استبدلت «الأمة» بإله المسيحية الميت وجعلت منها «الحقيقة المطلقة» والأصيلة. أما بالنسبة للمسلم، فليس هناك «حقيقة مطلقة» سوى الله؛ ومن ثم فإن الولاء المطلق للأمة أو للدولة عنده ليس أمراً مستحيلاً فقط. وإنما هو كفر. ومهما تكن الرابطة التي تربط المسلم بتراثه وماضيه، فمن غير الممكن بالنسبة له أن يكون «قومياً» بنفس المعنى الذي لدى الأوربي الذي تخلص من مسيحيته.

انظر إلى المثل الأعلى للمدرس في الجامعات الإسلامية، أعني الأستاذ الحاصل على الدكتوراة من إحدى الجامعات الغربية. لقد

تعلم في الغرب وتخرج بمعدل متوسط أو دون المتوسط. ولما لم تكن دوافعه دينية، بمعنى أنه لم يطلب العلم ابتغاء مرضاة الله، بل لأهداف مادية أنانية (أو قومية على أحسن تقدير) فإنه لم يحرص على نيل كل المتاح من العلوم في الغرب، ولم يستطع أن يتفوق على أساتذته الغربيين في مجالاتهم، كما لم يتمثل ما تعلمه ولا حاول بالطبع إعادة تقييمه في إطار الرؤية الإسلامية للمعرفة وللحقيقة على غرار ما فعل أسلافه الذين تعلموا علوم الأمم القديمة من يونان وفرس وهنود وصبغوها بالصبغة الإسلامية. وبدلاً من أن يفعل ذلك، اكتفى هذا الأستاذ بالنجاح ونيل الدرجة ثم العودة إلى بلده ليحصل على منصب يهيء له الثروة والرفعة. ويكفيه ما قرأه من كتب أثناء الدراسة إذ لم يعد لديه الآن وقت أو طاقة أو دافع ليمد من آفاق معرفته إلى أبعد مما حصّل. بل إن ظروف عمله ومعيشته لتزيد في إلهائه عن التطلع إلى مثل تلك الآفاق العليا. أما طلبته فمن الطبيعي أن يتخرجوا على يديه وهم أقل منه كفاءة وأضعف دافعاً. حتى المثل الأعلى الغربي صار في نظرهم أبعد وأضأل. وهكذا تهبط المستويات، ويصبح التعليم الغربي في بلاد المسلمين صورة مهزوزة لحقيقته في الغرب.

إن المواد والمناهج التي تدرّس في البلاد الإسلامية حالياً إنما هي نُسخ مِمّا عند الغربيين لكن مع افتقارها للرؤية التي تمدها بالحياة في بيئتها الأصلية. وهي بهذه الصورة تصبح من عوامل الضعف. هذه المواد والمناهج التي لا روح فيها تظل - بشكل لا شعوري - تؤثر في الطالب تأثيراً سيئاً معادياً للإسلام من حيث إنها تقف كبدائل للمواد والمناهج الإسلامية وكعوامل للتقدم

والتحديث. إنها تجعل من الخريج في جامعات العالم الإسلامي نموذجاً للشاب المغرور الذي يظن بنفسه العلم مع أنه في الحقيقة لا يعرف إلا قليلاً.

وهكذا تصبح إمكانية تفوق الطالب المسلم في علوم الغرب أمراً بعيد المنال، ذلك لأن مثل هذا التفوق يتطلب من الدارس تصوراً شاملاً لمجموع المعارف في مجال الدراسة، كما يتطلب منه أن يكون مدفوعاً بفكرة تحركه ليستوعب هذه المعارف ثم يتجاوزها ويزيد عليها. هذا الاستيعاب الشامل والتفوق ثمرة للدافع والفكرة المحركة، والأخيران لا يتولدان إلا من الالتزام بقضية. أما بدون قضية فلا يمكن أن ينهض الدارس ليستوعب مجموع المعارف في مجال دراسته. وإذا لم يستوعبها فكيف يمكنه أن يتجاوزها ويتفوق عليها؟! وليس للمسلم من قضية يلتزم بها سوى الإسلام. وإذا لم توجد هذه القضية فمحال أن يصل المدرسون الذين تعلموا في الغرب إلى استيعاب شامل للمعرفة. وإذا فقدوا ـ كمدرسين في الجامعات ـ هذه المتطلبات الضرورية للتفوق فهل يمكن أن يمنحوها لطلابهم؟! إنهم عادةً يقنعون باستنساخ ما حصلوه من معارف جزئية أو بترجمتها، وهذا يؤدي بهم وبطلابهم إلى ضعف في مستوى الأداء على أحسن الاحتمالات.

إن مأساة التعليم الكبرى في بلاد المسلمين تتمثل يقيناً في أن الأساتذة في جامعات العالم الإسلامي لا تسيطر عليهم الرؤية الإسلامية ولا تحفزهم قضية الإسلام. إن الطلاب في كل بلاد العالم الإسلامي يدخلون الجامعات وكل ما تسلحوا به ـ فيما يتصل بالرؤية الإسلامية ـ معلومات ضئيلة عن الإسلام تلقوها

في بيوتهم أو في المدرسة الابتدائية أو الثانوية. وواضح أن هذا لا يُكَوِّن «رؤية» ولا يوجد «قضية». ومن هنا، فإن الطالب المستجد يدخل وهو كالصفحة البيضاء من حيث «المبادىء». قد تكون لديه بعض العواطف، لكنه بالتأكيد خلو من «الأفكار والمبادىء» الواضحة. هذه العواطف ـ إن وجدت ـ لا تلبث أن تنهار حين تواجَهُ بما يقدمه له «العلم» في مجال التخصص على أنه «مبادىء» و«حقائق» وأحكام «موضوعية» في حين ليس لدى هذا الطالب شيء يدفع به عن نفسه من نحو تَصَوُّر إسلامي واضح يمكنه من المواجهة على هذا المستوى «الفكري». هذا الطالب إن لم يتخرج وقد تأصل لديه الإلحاد أو العلمانية أو الشيوعية، فإن الإسلام في نظره يكون قد انحسر إلى مجرد رباط عاطفي شخصي بينه وبين أسرته أو الناس من حوله. أما الإسلام النابض بالحياة الغني بأفضل المبادىء التي تلائم وتحل كل مشكلة فإنه لا يدري عنه شيئاً. وعلى مستوى «الفكرة والمبدأ» نجد الطالب في جامعات العالم الإسلامي يُواجِهُ الأفكارَ والمبادىءَ الأجنبية، التي تقدم إليه في الكتب أو في قاعات الدرس، بوسائل دفاع لا تجدى فتيلاً، أشبه بجندي يواجه بالسيف والرمح جندياً آخر مدججاً بالدبابة والمدفع. وليس هناك مكان في العالم الإسلامي يُدَرَّس فيه التصور الإسلامي لمجموع الطلاب كما يُدرَّس التصور الغربي لطلاب المدارس الثانوية في الغرب، أعني بهذا المستوى من التناسق والشمولية والجدية والالتزام الفائقين بالنسبة للجميع. فليس هناك جامعة في العالم الإسلامي تجعل مثل هذا التصور الإسلامي جزءاً من البرنامج الدراسي الأساسي وتفرضه على جميع الطلاب.

ثانيـاً : الوَاجبُ المَطْلوبُ

إن أعظم مهمة تواجه «الأمة» في القرن الخامس عشر الهجري هي حل مشكلة التعليم. وليس هناك أمل في بعث حقيقي للأمة ما لم يتم تجديد النظام التعليمي وإصلاح أخطائه. والحق أن ما نحتاج إليه إنما هو إعادة تشكيل النظام من جديد. إن هذه الثنائية في التعليم الإسلامي وتقسيمه إلى نظامين «إسلامي» و«علماني» يجب أن تزال ويقضى عليها إلى الأبد. يجب أن يدمج النظامان ويتكاملا في نظام واحد وأن يشبّع بروح الإسلام ليصبح جزءاً وظيفياً لا يتجزأ من برنامجه «الفكريّ». يجب ألا يسمح لهذا النظام الجديد أن يظل تقليداً للغرب ولا أن يترك حراً يختطّ لنفسه أي طريق كان. كذلك، يجب ألا يُتهاون معه بحيث يصبح أداة لخدمة الاحتياجات الاقتصادية أو العملية للطلاب من أجل معارف مهنية أو تقدم شخصي أو منفعة مادية. يجب أن تناط بالنظام التعليمي رسالة، ولا يمكن لهذه الرسالة إلا أن تكون نقل «الرؤية» الإسلامية وتربية الإرادة لتحقيقها في الزمان والمكان.

القيام بمثل هذه المهمة لا شك أمر صعب ومكلِّف. لكن «الأمة» في مجموعها تنفق على التعليم من «مجمل ناتجها القومي» وميزانيتها السنوية نسبة أقل بكثير مما تنفقه الأمم الأخرى في

العالم اليوم، حتى في الدول الغنية حيث ترصد ميزانيات غنية للتعليم، فإن معظم ما ينفق يكون على المباني والإداريات وليس على البحوث والأنشطة التعليمية بكل ما في الكلمة من معنى. إن على «الأمة» أن تنفق على التعليم أكثر بكثير مما تفعل اليوم، وذلك لتجتذب أفضل العقول ولتعينهم على أن يحافظوا على النعمة والمنزلة التي أنعم الله تعالى عليهم بها إذ جعلهم «أهل العلم» أو «طلابه».

(أ) - توحيد نظامي التعليم:

ينبغي أن يوحَّد النظام الإسلامي التعليمي، المكون من المدارس الابتدائية والثانوية والكليات والجامعات، مع النظام العلماني في المدارس العامة والجامعات. هذا التوحيد يجب أن يصطفي للنظام الجديد الموحَّد ما يتمتع به كل من النظامين من مزايا، أعني: مصادر التمويل الحكومية والالتزام بالرؤية الإسلامية. كما يجب أن يكون هذا التوحيد فرصة للتخلص من نقائصهما وهي: عدم ملاءمة الكتب الدراسية القديمة ونقص كفاءة المدرسين في النظام التقليدي، والتشبه بالغرب العلماني في مناهجه ومثله في النظام العلماني.

هذه المزايا يمكن أن تتوفر للنظام الجديد إذا ما وافقت الحكومات المعنية على أن تخصص له الاعتمادات اللازمة دون أن تمارس عليه سيطرة خانقة. لا بد من اتخاذ الخطوات اللازمة لجعل هذا النظام التعليمي الجديد مُؤَمَّناً، إن لم يكن مستقلاً تماماً، من الناحية المالية، وذلك بالحث على إيجاد أوقاف ينفق على النظام أو بعض جوانبه من ريعها. وتلك هي «الأوقاف» التي

تعرفها الشريعة وتحميها من أجل صالح الأمة. لقد كان لأوقاف كل «مدرسة» الفضل في ضمان استقلالها في الماضي وتمكين أساتذتها وطلابها من أن يطلبوا العلم ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده، وهذا هو الشرط الضروري لوجود أي بحث ناجح عن الحقيقة. كما كانت مؤسسة الوقف هي التي أعطت «المدرسة» شخصيتها الثانوية المتميزة لأول مرة في التاريخ. تلك «المدارس» التي قامت على أساس «الوقف» هي التي كانت النموذج الذي أنشئت على مثاله الجامعات الأولى في الغرب حين أسست منذ ثمانية قرون.

نتيجة للانفجار المعرفي وللزيادة الهائلة في عدد الطلاب أيضاً أصبحت النفقات اللازمة للتعليم في الوقت الحاضر كبيرة جداً بحيث لا تستطيع الأوقاف وحدها أن تواجهها. ومن هنا يكون من الضروري تخصيص نسبة سنوية من الميزانية العامة. ولكن على الدولة أن يكون لديها القدر الكافي من الحكمة لتتفاوض مع رجال التعليم حول مقدار المعونة الحكومية وأن تأتمنهم على استخدامها على أفضل وجه ممكن. وإذا كانت الجامعات الحكومية في الغرب تفعل هذا، فمن اللغو أن يزعم أحد أنّ المسلمين الملتزمين بتعاليم القرآن غير قادرين على فعل الشيء نفسه. إن الأمة التي لا تحترم المتعلمين من بنيها وبناتها ولا تبذل من نفسها لتنقل إليهم تراث أسلافهم الروحي والثقافي ولا تمكن شبابها من أن يضيفوا إلى تقاليدهم ويُغْنوها، مثل هذه الأمة لا خير فيها ولا مستقبل لها. إنه لدليل على الطغيان ألا تأتمن الدولة رجال التعليم فيها على القيام بوظائفهم دون رقابة بوليسية على المؤسسات التعليمية. كما أنّ من أدلة التدهور أن يضطر

المتخصصون في التعليم إلى أن يتلقوا من الحكام السياسيين تعليمات عن ماذا يدرّسون وكيف يديرون شؤونهم الأكاديمية.

(ب) ـ غرس الرؤية الإسلامية

ينتظر من هذا الاتحاد بين النظامين أن يؤدي إلى شيء أبعد من مجرد توفير الوسائل للنظام الإسلامي وتحقيق الاستقلالية للنظام العلماني. من المنتظر منه أن يزوِّد «العلماني» بالمعرفة الإسلامية و«الإسلامي» بالمعرفة الحديثة. بالنسبة للتعليم الابتدائي والثانوي يجب وضع حد لجريمة ترك الشباب المسلم تحت أيدي المبشرين ورجال التعليم غير المسلمين. من حق كل شاب مسلم أن يتلقى تعليماً دينياً كاملاً، عن الإسلام: نظامه الأخلاقي وتشريعاته وتاريخه وثقافته. إن الأمة كلها، أو أي جزء منها، وكذلك القادة فيها مسؤولون قانوناً ومعرضون للعقاب أمام الله إذا هم أخفقوا في توفير هذا التعليم الأساسي عن الإسلام لكل شاب مسلم.

ومثل هذا تماماً يقال عن تعليم الكبار أيضاً. إن الطفل يجد من والديه أو من المسؤول عنه من الرعاية ما يقيه من ارتكاب منكر يكرهه الإسلام ومن التعدي على حدود الشريعة. أما البالغ فهو خلو من هذه المتابعة. إنه غرض مستهدف من قبل الدعايات غير الإسلامية داخل الجامعة وخارجها. ففي قاعات الدرس، وفي القراءات المقررة تعرض عليه باستمرار أفكار ومبادىء أجنبية باسم العلم والتقدمية. هذه الأفكار وأنماط السلوك غير الإسلامية يزعمون له أنها حقائق علمية وأنها مبنية على حقائق موضوعية. هذا الطالب المسلم قُدِّم إليه الإسلام أيام حداثته من خلال

صوت السلطة الوالدية. وقتها لم يكن عقله قد نضج بالقدر الكافي لفهم الدعاوى «الموضوعية» أو تقديرها قدرها. لهذا كان ارتباطه بالموقف الإسلامي ناشئاً عن العاطفة وليس عن اقتناع مدعم بالدليل. وواضح أن التزامه هذا بالإسلام لا يمكن أن يثبت أمام انقضاض الحقائق التي تلبس ثوب «العلمية» و«الموضوعية» و«الحداثة». ولهذا السبب فإن طالب الجامعة المسلم لا يلبث أن يستسلم لهذه الدعاوى العلمانية ويؤمن بها نتيجة لغياب أي غرض لقضايا الإسلام يناهض تلك الدعاوى، مدعوماً بنفس القوة من «الموضوعية» و«العلمية» وبنفس المستوى من «الحداثة». وعلى هذا النحو تبدأ عملية سلخ طلاب الجامعات المسلمين عن دينهم. فبعد أربع سنوات من هذا التأثير، التغريبي، داخل الجامعة والتأثير الآخر الذي يساويه، وربما يفوقه، والذي يأتي من وسائل الأعلام أو من قرنائه ومجتمعه، يُقْضى على الوعي الإسلامي لدى المسلم. ولا عجب بعد ذلك أن يصبح من الناحية الثقافية مادياً متشككاً، لا هو بالمسلم ولا هو بالغربي رغم أنه في وطنه، ويكون على استعداد للسير وراء كل من يلبي له شهواته الآنية.

١ ـ فرض دراسة الحضارة الإسلامية:

إن الترياق الوحيد الممكن القادر على مقاومة عملية السلخ تلك على مستوى الجامعة هو فرض دراسة الحضارة الإسلامية على مدى السنوات الأربع. فعلى كل طالب في الجامعة ـ بصرف النظر عن التخصص ـ أن يدرس هذه المادة المقررة. إن كونه مواطناً أو فرداً من هذه الأمة يفرض عليه أن يحمل قدراً حياً ونامياً من المعرفة بتراث الأمة ومن التشبع بروحها وألفة

حضارتها. وكيف يمكن أن يكون مواطناً من لا يمتلك هذه المعرفة؟! وحتى لو كان الطالب ينتمي إلى إحدى الأقليات غير المسلمة، فإن ذلك لا يجعله في حل من تحصيل هذا المتطلب الأساسي. فما دام قد ارتضى هو أو والده أن يكونوا مواطنين في دولة إسلامية، فلا بد من توفر المعرفة الضرورية بالحضارة التي ينتمي إليها موطنه وبالروح والآمال التي تزكيه هو ومواطنيه. لا يترك شخص ما دون أن يُؤقلم «ثقافياً» و«اجتماعياً» مع الإسلام والمجتمع الذي يعيش فيه. مثل هذه الدراسة هي التي يمكن أن تحصّنه ضدّ الغزو الفكري والعقائدي، إذ تمكنه من أن يقارع الحجة بالحجة والبرهانَ الموضوعيَّ بمثله. ومثل هذه الدراسة هي وحدها التي يمكن أن تعده ليسهم بأصالة في حياة الأمة الثقافية وتقدمها؛ إذ من خلال هذا المنهج وحده سوف يعرف جوهر الحضارة الإسلامية و«اقناعية» الإسلام والطريق التي سوف تسلكها ـ أو تود أن تسلكها ـ الأمة؛ وسوف يعرف أيضاً كيف يميز أمته ـ ونفسه بالتالي ـ عن الآخرين وكيف يعتز بهذا التميز ويحرص على صيانته وعلى جذب الآخرين للاقتراب منه.

إن دراسة الحضارة هي الطريق الوحيدة لتنمية معنى الشخصية في الفرد. وكيف يكون على وعي بذاته من لا يعرف أسلافه؟! أعني من لا يعرف الروح الذي بعث فيهم الحياة، وفي كل ما أنجزوه في ميادين الفنون والعلوم وفي حياتهم السياسية والاقتصادية ونظامهم الاجتماعي وتجربتهم الجمالية، ومن لا تتحرك مشاعره لآلامهم ومآسيهم أو لأمجادهم وانتصاراتهم ولا تلهمه آمالهم؟! إن الوعي بالشخصية الذاتية لا يتأتى إلا حين يقارن المرء مثل هذه المعرفة بأصوله وتراثه بما يعرفه عن الشعوب

والجماعات الأخرى وبحضاراتهم. إن معرفة المرء بنفسه تعني معرفة الفرق بينه وبين الآخرين، لا في المطالب المادية والحقائق المنفعية ولكن في النظرة إلى الكون وفي الحكم الأخلاقي والأمل الروحي. هذا هو المجال الكامل للإسلام: مجال الثقافة والحضارة اللتين بناهما الإسلام ونمّاهما على امتداد الأجيال. والوصول إلى ذلك لا يتمّ إلا بدراسة الإسلام وحضارته ثم بالدراسة المقارنة للديانات والحضارات الأخرى. ولكي يكون المرء «عصرياً» في زمننا هذا لا بد أن يكون واعياً حضارياً، أي واعياً بطبيعة تراثه الحضاري وبالروح الذي أوجد مظاهره المختلفة وبما يميزه عن بقية تيارات التاريخ الحضاري وبجاذبيته واتجاهه نحو المستقبل. وبدون هذه المعرفة لا يمكن للمرء أن يكون فعّالاً في تحديد مصيره، بل لا يمكن يقيناً أن تمتد به الحياة في هذا العالم. فالقوى الحضارية المتنافسة في هذا القرن تستطيع ـ خلافاً للماضي ـ أن تصل إلى أي فرد وتتجاوزه دونما حاجة إلى غزو أو احتلال عسكري لبلاده. يمكنها أن تفسد عقله وأن تحوله إلى وجهة نظر عوالمها ثم تُحيِّده وتحتويه ليصير في يدها لعبة سواء أكان واعياً بهذا أم لا. ومن المؤكد أن هذه القوى تتنافس فيما بينها للسيطرة على العالم. وإحراز الإسلام الظفر غدا أمر يملك المسلمون اليوم البت فيه وفيما إذا كان المسلمون سيصبحون صُنّاعاً للتاريخ أو مجرد موضوعات يكتب عنها التاريخ. ومن المؤكد أن المعركة الحضارية الدائرة في العالم اليوم لن تترك أحداً بمنجاة من إصاباتها. وكل إنسان لا بد له من أن يتأثر بهذا الطرف أو ذاك من الأطراف المتنافسة ما لم يقم هو نفسه بمعاجلة الحضارة الغازية فيصبح، لذلك، مؤثراً في الآخرين.

إنه لا يليق بالمسلمين أن يعتقدوا أن الحضارة الإسلامية ستبقى حية ما دامت تدرّس في أقسام الدراسات الإسلامية ومعاهدها وفي كليات الشريعة أو جامعاتها. والواقع أن إنشاء المسلمين أقساماً للدراسات الإسلامية في جامعاتهم لدليل على انحطاطهم، وان تلك الأقسام ليست دائماً سوى نسخ من أقسام الدراسات الاستشراقية في الجامعات الغربية حيث تكون دراسة الإسلام مجال تخصص لقلة ممن يحتاج إليهم المجتمع لتدبير شؤون علاقاته بالعالم الإسلامي. إن الطريق إلى دراسة الشريعة يجب أن يفتح أمام كل أفراد الأمة، وذلك على الرغم من أن الحاجة إلى متخصصين في الشريعة يقومون بالفصل في الخلافات بين المسلمين ستظل تتطلب ذلك التدريب الرفيع الذي تقدمه كليات الشريعة. إن كل فرد يجب أن يكون لديه علم حيوي بعلوم الشريعة فذلك هو المنهاج المعياري أو منهج الوجود الإسلامي.

زد على هذا أن معرفة الإسلام وحضارته ليست أمراً يخص القلة وحدهم، إذ ليس المتخصصون وحدهم هم الذين يعنيهم التصور الإسلامي أو يحتاجون إليه. إنه لكل البشرية، وقد وضع ليرتفع بكل من أخذوا به إلى مستوى أعلى من الوجود. الإسلام يبغض تفرقة الناس إلى رجال دين ورجال دنيا، ويصر على أن واجب كل الناس أن يعرفوا الحق ويعملوا به ويدعوا إليه. ولذا فالرؤية الإسلامية يحتاجها الجميع لتحميهم من المبادىء الأجنبية التي تغزو وعيهم. وما لم يصبح كل فرد محصناً ضد الأمراض، فالضحية هي الأمة ولا شك. أضف إلى هذا أن الإسلام هو الدين الشامل الذي تلائم رؤيته كل نشاط وكل جهد إنساني سواء أكان بدنيّاً أو اجتماعيّاً أو اقتصادياً أو سياسياً أو ثقافياً أو

روحياً. إنه ليس ـ كالمسيحية أو البوذية ـ ديناً أخروياً فقط يقنع بأمور اللاهوت تاركاً ما وراء ذلك لقيصر. ليس هناك ما يمكن أن يقال أو يؤدى في أي متجر أو مصنع أو مكتب أو منزل أو مسرح أو حقل، ومن باب أولى في أي قاعة للدرس أو مختبر، دون أن يكون داخلاً في دائرة اختصاص الإسلام. ومن هنا فإن حصر هذا التصور الإسلامي الشامل في قسم واحد أو كلية واحدة إنما هو بتر له، بل حكم عليه بالموت. هذا التصور يجب أن يكون هو المبدأ الأول الموجه والمسيطر في كل فرع من فروع المعرفة وفي كل مهنة وكل عمل إنساني.

إننا نحتاج ـ بناء على هذا ـ إلى منهج دراسي يمتد أربع سنوات ويكون جزءاً من البرنامج «الأساسي» لجميع الطلاب بصرف النظر عن تخصصاتهم أو مهنهم. ويجب أن يهدف هذا المنهج إلى تعريف الطالب المسلم في السنة الأولى بمبادىء الإسلام كجوهر للحضارة الإسلامية؛ وفي السنة الثانية بالإنجازات التاريخية للحضارة الإسلامية كثمرات للمبادىء الأولى للإسلام شهدها الزمان والمكان؛ وفي السنة الثالثة بوجوه الاتفاق والافتراق بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى في الجوهر والمظهر؛ وفي السنة الرابعة بتفرّد الحضارة الإسلامية كخيار حي وحيد لمعالجة المشكلات الأساسية للمسلمين وغير المسلمين في عالمنا المعاصر.

٢ ـ «أسلمة» المعارف الحديثة:

إنها لخطوة عظيمة إلى الأمام إذا ما فرضت الجامعات والكليات في العالم الإسلامي مقررات دراسية إجبارية في الحضارة الإسلامية كجزء من برنامج الدراسات الأساسية لجميع

الطلاب. إن ذلك سيمدّ الطلاب بالإيمان بدينهم وتراثهم وسيزرع في نفوسهم الثقة بأنفسهم لينهضوا ويواجهوا مشكلاتهم الحالية، ويتغلبوا عليها ثم ينطلقوا نحو الغاية التي كلفهم بها تعالى. لكن هذا لا يكفي.

إن الانطلاق نحو الغاية الإسلامية والعمل على جعل كلمة الله هي العليا في الزمان والمكان لا غنى لهما عن معرفة العالم المحيط بنا. هذه المعرفة هي هدف العلوم المختلفة. وقد وجدنا المسلمين قبل أن يسقطوا في الضعف والنوم يطورون العلوم ويحددون بوضوح علاقة الإسلام بكل واحد منها من حيث القيم والأنظار المتعلقة بالحياة، وقد نجحوا كذلك في جعلها جزءاً لا يتجزأ من بناء المعرفة الإسلامية. لهذا حققوا إنجازات رائعة في كل الميادين، كما استخدموا هذه المعرفة بكفاءة ليرتفعوا بمثلهم الإسلامية. وحين ركدت ريح المسلمين قام غير المسلمين فأخذوا تراث العلماء والمثقفين المسلمين وكيفوه مع نظرتهم للحياة وأقاموا على ذلك مختلف العلوم، وأضافوا إليه مساهمات ذات قيمة ثم استغلوا كل تلك المعارف الجديدة فيما يحقق مصالحهم. واليوم، ها هم غير المسلمين أساتذة لكل العلوم بلا منازع. واليوم نجد مؤلفات غير المسلمين وإنجازاتهم ونظرتهم للعالم ومشاكلهم ومثلهم العليا هي التي تُدَرّس للشباب المسلم في جامعات العالم الإسلامي. إن شباب المسلمين اليوم ومن جامعات المسلمين يتم صبغه بالصبغة الغربية وعلى أيدي الأساتذة المسلمين.

إن هذا الوضع يجب أن يتغير. لا شك في أن على المتخصصين من علماء المسلمين أن يتقنوا كافة العلوم الحديثة وأن يفهموها حق

الفهم وأن يصبح في حوزتهم وطوع أمرهم كل ما يمكن أن تقدمه من فوائد. هذا شرط ضروري وأوليّ. يلي ذلك أن عليهم أن يدمجوا هذه المعارف الجديدة في بناء التراث الإسلامي عن طريق الحذف والتعديل وإعادة التفسير والتكييف لكل مكوناته طبقاً لما تمليه قيم الإسلام ونظرته للعالم. ومن الواجب أن تحدد بوضوح جهة التلاقي والملاءمة بين الإسلام وفلسفة كل علم، أعني مناهجه وأهدافه العليا. كما يجب أن تهيأ الطرق الجديدة التي يستطيع بها هذا العلم المعدّل أن يخدم المثل الإسلامية. وفي النهاية، عليهم كطلائع أن يعطوا من أنفسهم المثل وأن يعلّموا الأجيال الجديدة من المسلمين وغير المسلمين كيف يقتفون خطواتهم ويوسّعون باستمرار آفاق المعرفة الإسلامية وأن يكتشفوا المزيد من قوانين الله في الخلق ويؤسسوا طرقاً جديدة لوضع إرادته وتكاليفه موضع التحقيق في واقع الحياة.

إن مهمة أسلمة المعرفة (أعني بالتحديد أسلمة العلوم، أو، بمعنى أوضح، إنتاج كتب دراسية جامعية في نحو عشرين عِلْماً طبقاً للتصور الإسلامي) هي من أصعب المهمات. ولا نعرف مسلماً من قبل قد درسها بعمق يكفي لإدراك متطلباتها إدراكاً واضحاً وتحديد خطواتها ومقاييسها التنفيذية. كل ما فكر فيه مصلحونا السابقون هو العمل على اكتساب معرفة الغرب وقوته، بل إنهم لم يكونوا مدركين لما بين معارف الغرب والرؤية الإسلامية من تناقض. إن جيلنا الحاضر فقط هو الذي أدرك هذا التناقض إذ عاشه في حياته الفكرية. وإن العذاب الروحي الذي صبه التناقض علينا قد جعلنا ننتبه في فزع مدركين تماماً لما يحدث أمام أنظارنا من استلاب للروح الإسلامي في جامعات المسلمين

ومن هنا نهضنا ننذر العالم الإسلامي ونحذره من الخطر ونضع لأول مرة في التاريخ خطة مفصلة لإيقافه ومقاومة آثاره ثم وضع التعليم الإسلامي من جديد في مساره الصحيح حتى يؤدي إلى غايته المقدرة.

ومن المؤسف جداً أن العالم الإسلامي محروم حتى الآن من مركز علمي تتم فيه مناقشة مثل هذه القضايا العليا. إننا بحاجة إلى جامعة تكون بمثابة مركز رئيسي للفكر الإسلامي، فيها تتم عملية أسلمة العلوم ووضع النتائج موضع الاختيار في فصول دراسية وحلقات بحث تتناول مناهج كل من المرحلة الجامعية ومرحلة الدراسات العليا. وقبل أن تبدأ جامعة «إسلام أباد» التعاون مع «المعهد العالمي للفكر الإسلامي»، لم نجد أي معهد تعليمي في العالم الإسلامي قد حرك ساكناً نحو أسلمة المعرفة أو إعداد كتب إسلامية في المواد الدراسية تصلح للاستخدام في الكليات أو حتى إعداد الأدوات الضرورية للبحث من أجل تأليف هذه الكتب. ورغم ذلك، فإن المرء يسمع في كل مكان عن الحاجة إلى أسلمة التعليم: رجاله ومؤسساته، مناهجه وكتبه. وعلى المستوى الرسمي، حيث تتوفر قوة اتخاذ القرار، لا يجد المرء أكثر من الكلام الذي يصدر عن الجهلاء أو يستهدف تضليل الجماهير.

إن هذه المهمة هي أنبل المهمات وأسمى تحقيق للإرادة الإلهية وأول الواجبات الأخلاقية وألزمها. إن ديانات العالم ونهضة الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي لم تبدأ نموها وتطورها ولم تنجز ما أنجزت بدون قضية كهذه تمد أتباعها بالحياة والحركة.

وأضعف الإيمان أن يقال: إن المسلمين كذلك عليهم أن يعقدوا العزم الأكيد على التضحية بأرواحهم في سبيل قضية إن أرادوا لأنفسهم أن يصبحوا من صانعي التاريخ لا مجرد متأثرين به. ومع ذلك فإن الإسلام ليس واحداً من تلك النظريات يُنظَّم معها في سلك واحد، ولا هو بالذي يعرض دعواه على أنها عقيدة جاءت نتيجة التجربة الشخصية والاختيار الذاتي يجوز أن تُتَبَنّى ويجوز أن ترفض بطريقة اعتباطية. إن دعوى الإسلام دعوى عقلية وضرورية ونقدية. إنها ذات صلاحية عالمية ولها على البشرية شرعاً حق الاعتراف بها والإذعان لها. فمن جانبها العقلي لا يمكن أن تقابل إلا بالدليل والبرهان وهو ما يجب أن يرحب به من يعتنقها من المسلمين ويرد عليه بالحجة. إن كل مكونات دعوى الإسلام، وكذلك علاقته بكل العلوم لا يمكن أن تقبل دون دليل مقنع. وما دامت الرؤية الإسلامية قد أقامت دعواها ورفعتها في وجه أعلى مستويات العلم وأبرزتها حقيقة واقعة في وجه أسمى درجات الوعي وأشدها حساسية، فإنها ـ والحال هذه ـ لا يمكن أن ترفض أو تقاوم إلا بدافع من اللامنطقية أو الحقد. والأولى هي سمة الجهلاء ذوي الفقر العقلي، والأخرى هي سمة الأعداء الألدّاء. وكلا الفريقين يشكل ما أسماه الإسلام بـ «الجاهلية».

هذه إذن هي المهمة التي تواجه رجال الفكر والقادة من المسلمين، أن يعيدوا صياغة التراث البشري كله من وجهة نظر الإسلام. ولن يوجد التصور الإسلامي ما لم يكن تصوراً للحياة والحقيقة والعالم، وهذا المضمون هو هدف الدراسة في مختلف العلوم. إن إعادة صياغة المعرفة على أساس

علاقة الإسلام بها، يعني «أسلمَتها»، أي إعادة تعريف المعلومات وتنسيقها وإعادة التفكير في المقدمات والنتائج المتحصلة منها وأن يُقوّم من جديد ما انتُهي إليه من استنتاجات وأن يعاد تحديد الأهداف. . . على أن يتم كل ذلك بحيث يجعل تلك العلوم تثري التصور الإسلامي وتخدم قضية الإسلام. ولتحقيق هذا الهدف لا بد أن تحل التصورات المنهجية للإسلام - وأعني بها وحدة الحقيقة ووحدة المعرفة ووحدة الإنسانيةووحدة الحياة والطبيعة الغائيّة للخلق وتسخير الكون للإنسان، وعبودية الإنسان منه - أن تحل هذه محل التصورات الغربية وأن يتحدد على أساسها إدراك الحقيقية وتنظيمها. كذلك، لا بد للقيم الإسلامية - وأعني بها أثر المعرفة في تحقيق السعادة للإنسان وتَفَتُّح ملكاته وإعادة النظر في المخلوقات بحيث تجسد السنن الإلهية وبناء الثقافة والحضارة، وإقامة معالم إنسانية بارزة في المعرفة والحكمة والبطولة والفضيلة والتقوى والورع - لا بد لهذه القيم من أن تحل محل القيم الغربية وأن توجه نشاط التعليم في كل المجالات.

ورغبة في الدقة والوضوح سأتناول في الفصل التالي المبادىء السابقة بشيء من التفصيل.

ثالثًا : التصوّر المنهجي

(أ) - جوانب التصور في المنهجية التقليدية

نتيجة للتدمير الرهيب الذي صبته القوى غير المسلمة على «الأمة» في القرنين السادس والسابع الهجريين - الهجوم التتري من الشرق والحملات الصليبية من الغرب - فقد قادة المسلمين أعصابهم وفقدوا الثقة في أنفسهم. ولما ظنوا أن عالمهم الإسلامي قد قضي عليه بالهلاك بالغوا في «المحافظة» وأرادوا أن يصونوا شخصيتهم وإسلامهم الذي هو أثمن ما يملكون وذلك بتحريم كل إبداع والدعوة إلى الاستمساك الحرفي بنصوص «الشريعة». وكان في تلك الفترة أن أعلنوا إغلاق باب «الاجتهاد» وهو المصدر الرئيسي للتجديد في القانون. ولما كانوا قد اعتبروا أن «الشريعة» قد بلغت حد الكمال فيما كتبه السلف، فقد أعلنوا أن كل خروج على ما كتبوه بدعة، والبدعة أمر غير مرغوب فيه بل مذموم. وهكذا انتهى الأمر بتجميد «الشريعة» على الصورة التي قدمتها مدارس الفقه، ومن خلال ذلك (التجميد) ساعدت على بقاء الإسلام، ولكن بقاء الإسلام، وما تحقق للمسلمين من نصر وتوسع في روسيا وفي البلقان وفي جنوب شرق أوربا ووسطها فيما بين القرنين الثامن والثاني عشر الهجريين، لم يحطم قيود الجمود. وإن كان التبني الواسع للتصوف وطرقه قد ساعد المسلمين على

مواجهة هذه الصعوبات في غياب «الاجتهاد» كمصدر للإبداع. ولهذا بقيت «الشريعة» نظاماً مغلقاً حتى العصور الحديثة التي أعطى العلم والتكنولوجيا فيها للغرب قوة واجهوا بها المسلمين وهزموهم.

في العصور الحديثة أوقف الغرب الفتوحات العثمانية في أوربا، ثم احتل كل العالم الإسلامي واستعمره وقسّمه إلى فرق، باستثناء تركيا - التي أخرج منها بالقوة - واليمن ووسط جزيرة العرب وغربها حيث لم يكن بها ما يغري بالاستعمار. وقد استغلت القوة الغربية ضعف المسلمين أبشع استغلال وساهمت بشكل رئيسي في مرض العالم الإسلامي الذي سبق وصفه في مطلع هذه الدراسة. وفي مواجهة هذه الهزائم والمآسي والأزمات التي أنزلها الغرب بالعالم الإسلامي خلال القرنين الماضيين، حاول زعماء المسلمين في كل من تركيا ومصر والهند أن «يُغَرِّبُوا» الأمة على أمل أن يمنحوها بذلك روح الحياة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً. ولكن التجربة أثبتت فشلها حيثما تم استخدامها. وكان الحرص على تطبيقها أشد ما يكون في المواقع التي كان فيها فشلها صارخاً، كما في تركيا ومصر. ففي الأولى مهدت الطريق أمام مصطفى كمال ليلغي كافة المؤسسات الإسلامية ويرفض كل مبدأ إسلامي موروث ذي علاقة بالحياة العامة. أي استبدل النظام الغربي بالنظام الإسلامي كله. واليوم، وبعد جيلين من «التغريب» (ستين سنة)، نرى تركيا تشبه سائر البلاد الإسلامية الأخرى ضعفاً وفقراً في كافة المجالات. لقد نجح «التغريب» إلى حد ما في تجريد إحدى طبقات المجتمع من إسلامها، ولكن لم يفعل شيئاً سوى ذلك. أما في مصر، حيث كان الإصرار على

«التغريب» أقل، فقد تم زرع نظام غربي وترك النظام الإسلامي التقليدي يحيا معه جنباً إلى جنب. وكان هناك تنافس بين النظامين؛ ولكن لم يحرز أي منهما تفوقاً يذكر على الرغم من المزايا الهائلة التي تمتع بها النظام الغربي ـ الميزانيات العامة والدعم والمحاباة الحكوميين. كل ما نجحا فيه هو أن أضعف أحدهما الآخر.

١ ـ الفقه والفقهاء؛ الاجتهاد والمجتهدون:

يعني مصطلح «فقه» اليوم العلم بالشريعة على مذهب معين. ومنها «الفقيه» الذي لديه هذا العلم. كما قد يطلق لفظ «الفقه» بالمعنى العام ـ وكذلك ما اشتق منه ـ على المعرفة بالشريعة على كل المذاهب الفقهية. وتتطلب هذه المعرفة تمكُّناً من اللغة العربية ومن نصوص الأحكام في القرآن والسنة. ومن الواضح أن هذا معنى اصطلاحي محصور في حدود ضيقة إذا ما قورن بمعنى الكلمة القرآنية «فَقِهَ» و«تَفَقَّهَ» (كفعلين)، وقد تكرر ذكرهما في آيات عدة، وهو معنى يشير إلى الإدراك والفهم والوصول إلى اللب والتفسير، وباختصار، إلى معرفة الإسلام ككل. إن الانتقال من هذا المعنى العام للكلمة إلى ذلك المعنى التخصصي الضيق لهو في حد ذاته إشارة إلى حاجة الأمة الشديدة إلى معنى عام قادر على استيعاب اتجاهاتها الخلاقة وأنشطتها المتباينة. كما أن هذا التحول في معنى الكلمة، وفقدان الجانب الحيوي الذي كان الاستعمال المبكر لها يشير إليه، ليُكَوِّنان دليلاً على «المحافظة» وضيق الرؤية. لقد فهم فقهاء الإسلام العظام ـ الشافعي وأبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل ـ معنى المصطلح «أصول الفقه» لا

على معنى الأصول العامة للقانون الإسلامي، بل على أنه المبادىء الأولى للفهم الإسلامي للحياة والواقع.

أكثر من هذا، نجد أن الأوائل من فقهاء الأمة ـ أعني: صحابة رسول الله وجيل التابعين ومؤسسي المذاهب (رضي الله عنهم) ـ كانوا مبرزين في العلم بكل الأمور التي تؤثر في حياة المسلمين. لقد كان فقهاء العصور الأول موسوعيين بحق، وأساتذة فعلاً في كل التخصصات من الأدب والقانون إلى الفلك والطب، لقد كان هؤلاء رجالاً متخصصين عرفوا الإسلام لا على أنه قانون فقط، بل على أنه مثال ونظرية ونظام من الفكر وحياة يعيشها ويمارسها بالفعل ملايين من الناس. لقد كانوا يمتلكون أرقى المؤهلات الإسلامية على الإطلاق، وأعني بها «الذوق الشرعي» أو البديهة التي تدرك مقاصد القانون. وإذا كُنَّا نعتبرهم مُثُلاً لتناول مشاكل المسلمين تناولاً خلاقاً بسبب كفاءتهم المختارة، فمن المؤكد أن ما لدى «فقيه» اليوم، خريج الجامعة، من علم وحكمة لا يُؤهلانه للاضطلاع بالمسئوليات التي نهض بها في نجاح أولئك الأولون.

وفي داخل النظام التقليدي نفسه، تَمَّتْ عدة محاولات للإصلاح الذاتي، كان أجرؤها ما طرحه محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني. ومع أن أهل الوعي من المسلمين في كل مكان قد باركوا دعوتهما لفتح باب الاجتهاد، فإن المحاولة قد فشلت لسببين: **أولاً**، أن المؤهلات التقليدية المطلوبة من «المجتهدين» ظلت كما هي، وبذلك انحصرت ممارسة «الاجتهاد» في خريجي «المدارس» التقليدية، أعني في أولئك الذين لا يرون حاجة إليه.

إذ أن خريجي المدارس التقليدية هم بالتحديد من تلقوا تعليماً أقنعهم بأن المنهج مناسب تماماً وأن مشكلة العالم الإسلامي تكمن في رغبة الناس عن إدراك قيم الإسلام. **ثانياً**، أن فهم «المجتهد» على أنه يعني بالضرورة «الفقيه» ـ أعني الشخص الذي تدرب حتى صار قادراً على أن يحول المشاكل إلى مصطلحات قانونية ويصدر عليها أحكاماً طبقاً للأنماط القانونية ـ هذا الفهم قد حصر أو أدرج مشاكل «التحديث» ضمن تلك الأنماط. وهذا قد زاد من تضييق «الاجتهاد» أكثر وأكثر عن طريق تركيز جهوده كلها في «الفتوى»، أو إصدار أحكام فقهية على أعمال معينة يفعلها ـ أو يفترض أن يفعلها ـ المسلمون في حياتهم اليومية. هذا «الفقيه» أو «المجتهد» التقليدي، بهذا المفهوم، قد أصبح عاجزاً عن النظر إلى المشكلة ككل، وضاع على هذا النحو في عملية تحديد التطابق بين الأعمال المعينة والمعايير والقواعد التي حددها مذهب أو أكثر. إن الموقف يستدعي منهجية جديدة لا قدرة للمجتهدين التقليديين على تصورها، يستدعي أن تنفتح من جديد طبيعة فهمنا للأصول، أو مصادر المعرفة الإسلامية.

٢ ـ مصادمة «الوحي» لـ «العقل»:

لعل أخطر تطور مأساوي في التاريخ الفكري للأمة كان هو القول بأن كلا من «الوحي» و«العقل» غريب عن الآخر. ولقد كان ظهور المنطق اليوناني وتأثيره على بعض المسلمين، الذين كانوا حريصين كل الحرص على استخدام أساليبه لإقناع غير المسلمين بحقائق الإسلام، هو الذي وضعهم على الطريق التي انتهت بهم إلى مثل هذا القول. إن النصارى واليهود الذين تأثروا بالثقافة الهلينية قد عاشوا قروناً تحت ظل هذه الثنائية؛ وكثيرون

منهم نقلوها معهم إلى «الأمة» عندما أسلموا، وكان الفارابي هو الذي أعطاها صيغتها التقليدية التي انتصر لها الفلاسفة ضد «المتكلمين». وقد قبلها بعض متأخري «المتكلمين» ممن كان يرضيهم أن يشرحوا العقيدة في تحديد ووضوح. ثم أصبحت سائدة في مجال المجادلات الفكرية في عصر الانحطاط، خاصة في ظل تأثير «التصوف» الذي دعا إلى منهجية قائمة على أساس حدسي خالص، أو خفيّ غالباً، ومن هنا لم تجد بأساً في القول بهذه الغربة بين العقل والوحي.

إن الفصل بين «الوحي» و«العقل» أمر غير مقبول بالمرة. بل إنه لأمر مناف لروح الإسلام كله ومعارض لما في القرآن من دعوة أساسية للعقل أن يزن كل الأمور بميزان العقل وأن يفضل الأمور الأكثر معقولية والمنهج المتسم بالوسطية. إن دعوة الإسلام عقلية وانتقادية، خلافاً لتلك الأديان التي تحاول أن تجرف عقل الإنسان وتسيطر على ضميره بغية أن يسلم راغماً بما ليس بمعقول بل بما هو سخيف. إن الإسلام يهيب بالناس دائماً أن يستخدموا ذكاءهم، وأن يمحصوا بملكاتهم النقدية كل الدعاوى وأن يفكروا في البدائل وأن يكون فكرهم دائماً مقنعاً ومنسجماً وألا يقول أحدهم سوى الحق الذي هو على يقين منه وأن لا ينعزلوا بحال عن الواقع. ولا تخلو صفحة من صفحات القرآن من مثل هذا الحث والإلزام. وبدون العقل لا يمكن أن تدرك حقائق الوحي إدراكاً كاملاً أو تنكشف طبيعتها السماوية أو يعترف بها. وبدونه تستوي دعاوى الوحي مع غيرها من الدعاوى الباطلة. وإذا قبل الوحي على غير أساس من العقل، فإنه يكون قبولاً شخصياً اعتباطياً قابلاً للتبدل. وليس لأي أطروحة دينية قائمة على أساس المزاج

الشخصي أن تزعم أنها مستحقة للقبول لدى البشر جميعاً أو لدى نسبة معتبرة منهم لفترة طويلة. وحين بالغ المسلمون في التأكيد على الحدس على حساب العقل أدى ذلك إلى فتح الأبواب لفساد العقيدة. إن عدم فصلها عقلياً عن اللغو يعطي الفرصة للخرافات وحكايات العجائز أن تتزيّا بزيّ الحقيقة وتتسرب إلى العقيدة، ومثل ذلك تماماً، أن المبالغة في التأكيد على «العقل» على حساب العقيدة الحدسية قد أفسدت «حياة العقل» إذ هَجَّمَتْه في المادية والنفعيّة والآلية والخواء.

٣ ـ الفصل بين الفكر والفعل:

في الحقبة الأولى من تاريخ الإسلام كان المفكر هو القائد والقائد هو المفكر. كانت الرؤية الإسلامية هي المسيطرة والحماسة لتحويلها إلى واقع يُعاش هي التي تحدد السلوك. كانت هي الشغل الشاغل للمجتمع الإسلامي كله. كان كل مسلم واع يعمل جاهداً لسبر أغوار الحقيقة كي تخضع الماديات والفرص لتشكيل جديد يصبها في القوالب الإسلامية. لقد كان الفقيه في الوقت ذاته «إماماً» و«مجتهداً» و«قارئاً» و«محدّثاً» و«مدرساً» و«متكلماً» بالإضافة إلى كونه زعيماً سياسياً وقائداً عسكرياً وزارعاً أو تاجراً أو صاحب حرفة. وإذا أحس بضعف في أي من هذه الجوانب وجد كل فرد حوله على استعداد ليتقدم فيسد هذا النقص. كان كل فرد يعطي في سخاء كل ما لديه من أجل القضية، كما كان يشعر بأن قوة الآخرين قوة له.

كان المسلمون من التلاحم فيما بينهم إلى حد أنّ ضعفَ أيِّ فرد منهم سرعان ما كان يزول نتيجة تضامن الجميع وتجربتهم

الكلية. ونظراً إلى أن الفكر الإسلامي بطبيعته فكر متوجه نحو الحقيقة، فإن هذا الارتباط بالحياة والممارسة الفعلية كان بمثابة المختبر الذي امتحنت فيه كفاءة الأفكار الإسلامية. كذلك فإنه قد ربط الفكر بالحقيقة الواقعية واضطره إلى أن يجعل من الصالح العام للناس رجالاً ونساءً بؤرة اهتمامه. وإذا كانت تلك الفترة لم تشهد إلا قليلاً من الفكر الخيالي أو الميتافيزيقي، فإن ذلك لم يكن ناشئاً عن عجز، بل لأن جمهور المفكرين المسلمين كان يعطي الأولوية لتمكين جماهير الأمة من أن تعيش حياة ملؤها العافية والعقل والفضيلة والازدهار.

من ناحية أخرى، فإن واقع حياة الناس قد أفاد من أفكار القادة المبدعة، إذ كان ذلك الواقع هو مجال تفكيرهم المستمر، فكان الفكر الملائم يوضع موضع التطبيق لحل مشاكل الأمة، وكانت الحلول تأتي مناسبة للمواقف. ولذلك ازدهرت الأمة في كافة مجالات الفكر والحياة؛ لأن مصلحتها كانت دائماً موضع نظر العقول الممتازة، وكانت الحلول التي يقترحونها تنزل إلى ساحة الفعل وتنفذ لأن العقول ذاتها كانت هي التي توجه القوى المنفذة أو كانت على اتصال وثيق بمن يقومون بذلك.

لكن فيما بعد انفصمت هذه الرابطة بين الفكر والفعل. وما إن تم الانفصال بينهما حتى بدأ كل منهما يتدهور. فأصبحت القيادة السياسية ومن بيدهم القوة ينتقلون من أزمة إلى أزمة محرومين من الانتفاع بفكر العلماء ومشورتهم وحكمتهم. وكانت النتيجة تخبطاً في العمل ينفر من الموضوعات الجيدة ويضع القادة في مزيد من العزلة. وإذا وجد القادة أنفسهم في موقف الدفاع، فقد أدى ذلك إلى ارتكابهم مزيداً من الأخطاء الفادحة. أما

المفكرون فقد أصبحوا غرباء ومبعدين عن المشاركة الفعالة في شؤون الأمة، ولذلك لجؤوا إلى المثاليات كمسوغ لسخطهم على السلطة السياسية. بدأ بعضهم يبالغ في رفع منزلة «المعياري» في مقابل «الواقعي». وقد تعرض للاضطهاد من قبل السلطة الحاكمة أولئك الذين كان لسخطهم آثار سياسية. أما من لم يكن لسخطهم تلك الآثار فقد شُجّعوا على التحليق بعيداً عن الحقيقة الواقعية. هناك فريق آخر من المفكرين بدأوا يتنازلون عن المعايير بسبب ارتباطهم بالقيادة السياسية. وقد أنتج التوتر المتزايد تعددية أدت إلى تدمير الفكر والفعل معاً. فحين أصبح الفعل استبدادياً وميالاً إلى استخدام العنف، هجر الفكر ميدان الواقع التجريبي، وهو الصالح العام للناس، وأقنع نفسه بالتعليق على أعمال السابقين أو بالتحليق في أجواز التأمل الصوفي. وسرعان ما أصبحت الأمة معزولة عن قيادتها السياسية. لقد مر عليها زمن طويل توالى فيه الطغاة والقادة الفاسدون ومغتصبو العرش والخلفاء الدمى ممن يحركهم أصحاب القوة من ذوي السلطان، مما أضعف معنويات الأمة وأبعدها عن ساحة السياسة. في هذا الجو تلقفتهم الجماعات الصوفية وهيأت لهم التربية الروحية الذاتية والتثقيف من خلال التجربة الصوفية وعوضتهم بذلك عما فقدوه على مسرح التاريخ. وأصبح الدين عندهم مهرباً من الطغيان الذي لا يحتمل.

بينما كان السلطان يحكم ولا معارض له، كانت أعظم الطاقات العقلية في الأمة تتخذ طريقها وبسرعة نحو القيم الروحانية والفردية والذاتية التي تمخض عنها التصوف. واختفت السمة التي ميزت الحقبة المبكرة، وهي التكافؤ وقابلية التحول بين

الروحي والمادي الدنيوي؛ وحل محلها الجري وراء الروحاني على حساب الدنيوي ووراء الآخرة على حساب هذه الحياة. وإذ فقد الفكر الإسلامي صلته الوثيقة بالتجربة الواقعية في حياة الأمة، أصبح محافظاً وحرفياً في مجال التشريع وتخمينياً في مجال تفسير القرآن والنظرة إلى الحياة الدنيا ومزدرياً للدنيا في مجالي الأخلاق والسياسة ومستغلقاً في العلوم الطبيعية. وأصبح كبار المفكرين وعلماء الشريعة والأولياء لا يبالون بالسلطة السياسية ولا بالفعل وينظرون إليها من علٍ على أنها شيء تافه. وصارت مقاومة الدنيا أولاً ثم نبذها كلية هي الشروط الأولية للفضيلة. وبدا أن الأمة قد فقدت ذلك التوازن بين القيم الفردية والجماعية التي مثلتها حياة الرسول ﷺ تمثيلاً رفيعاً.

٤ ـ الثنائية الدينية والثقافية:

«الصراط المستقيم» الذي كان أمل الجميع وواقع حياة الصدر الأول من المسلمين، هو طريق واحد متكامل ينبثق من الرؤية الإسلامية الأصيلة ويجمع كافة اتجاهات الإنسان ونشاطاته في حركة واحدة تتجه نحو تحقيق الذات الإسلامية في التاريخ. أما في فترة الانحطاط، وبسبب الجفوة الواقعة بين الفكر والفعل، فقد انقسم الطريق إلى اثنين: طريق الدنيا وطريق الله والفضيلة. هذا الانشعاب في الحياة الإسلامية إلى منهجين متناقضين على طول الخط ـ أحدهما جدير بالتقدير ويضم كل القيم الدينية والخلقية، والآخر مذموم يضم العالم المادي وسائر قيمه ـ قد أفسد كليهما وقضى عليهما. لقد تبدل كل منهما، فأصبح الأول روحانية فارغة تشبه الروحانية الخاوية في الرهبنة البوذية والنصرانية. إن الروحانية التي لا تشغل نفسها بالمصلحة

الواقعية للجماهير والتي لا تسعى إلى تحقيق العدالة في مواطن الاضطراب والقسوة في هذا العالم لهي روحانية ذاتية تهتم بالرغبة الدينية للمؤمنين بها وحدهم. إنها روحانية قائمة على الأثرة حتى ولو دعت إلى شيء من أفعال الإيثار. أليس همها الأول هو حالة الوعي عند السالك. وما الآخرون ومصالحهم عندها إلّا وسائل وأدوات لامتحان النفس وتطهيرها وتزكيتها. ولا عجب، والحال هذه، أن تسقط هذه الروحانية في تراث الغنوصية وفي التجارب الخفية، وأن تصبح فريسة الخرافات والاتجار بالخوارق. ولم يرد أبداً على ذهن المشايخ الذين أسسوا الطرق الصوفية، والعقول الكبيرة التي وضعت لها مبادئها ونظرياتها الأساسية، أن جماعاتهم سوف تزيغ على هذا النحو وتنتهي إلى أخلاق وآمال تتعارض مع الإسلام. لكن الحق أن معظم تلك الجماعات قد استهواها هذا الإغراء.

أما طريق الدنيا، من الناحية الأخرى، فقد أقام له نظاماً لا أخلاقياً يخصه، متحللاً على هذا النحو من المتطلبات الأخلاقية التي أعلن ممثلو الإسلام أنها وظيفة طبقة أخرى من المسلمين. وبدون أن تكون القيم الخلقية هي قوامه فلا مفر من أن يتدهور ويصبح هو في نفسه مكافأة كل من يناضل في سبيله. وعلى هذا النحو أصبحت الحكومة والقيادة أو المناصب السياسية وسيلة لتعظيم النفس وللاستخدام الوحشي للقوة، أو لابتزاز المنافع الأدبية والمادية من الناس. ولذلك لم تُبْدِ الجماهير إلا مقاومة محدودة عندما هاجم العدو الاستعماري الأجنبي أرضها واحتلها. لقد أصبحت الجماهير مقتنعة بأن المعركة ليست معركتها. وفي النهاية، حين أقامت الإدارات الاستعمارية نظاماً

تعليمياً جديداً وبدأت تُؤْثِر نمطاً من الحياة والفكر والنشاط غريباً عما لدى الجماهير، نظرت إليه تلك الجماهير على أنه مألوف إلى حد الملل، وأنه أهل للمقت والازدراء لكنه لا يستأهل أن تنتفض الأمة كلها لتجاهد ضده.

(ب) ـ المبادىء الأساسية للمنهجية الإسلامية

إن أسلمة المعرفة أساس ضروري لإزالة الثنائية الموجودة في النظام التعليمي، وهي بدورها أساس لإزالة الثنائية من الحياة ولعلاج انحراف الأمة. ولا بد لأسلمة المعرفة أن تأخذ في الاعتبار عدداً من المبادىء التي تكون جوهر الإسلام، فضلاً عن توقي السقوط في المزالق وألوان القصور التي انزلقت إليها المنهجية التقليدية. إن عملية إعادة تشكيل العلوم ضمن إطار الإسلام تعني إخضاع نظرياتها وطرائقها ومبادئها وغاياتها لما يأتي:

١ ـ وحدانية الله (سبحانه وتعالى):

إن وحدانية الله تعالى هي المبدأ الأول للإسلام ولكل شيء إسلامي. فحوى هذا المبدأ أن الإله الحق هو الله؛ وأنه لا إله غيره؛ وأنه تعالى هو الواحد الأحد، العلي الأعلى، وأنه مطلق الكمال بكل المقاييس. وكل موجود سواه مغاير له ومخلوق له. هو الخلاق، بأمره توجد كل الموجودات وتقع سائر الحادثات. هو مصدر كل خير وكل جمال، إرادته هي القانون الذي يحكم الكون ويقنن للأخلاق. وعبادته وحمده واجب كل الكائنات وعلى رأسها الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وزوده بالقدرات التي بها يعرف ربه ويقدر عظمة صنعته، كما منحه القدرة على أن يتصرف

فيما خلق الله ليحقق من خلال ذلك المثل الإلهية من الأخلاق وفي الجمال.

أن يفكر المرء ويعيش واعياً بوحدانية الله معناه أن يعيش في عالم ملؤه الجمال والحيوية لأن كل شيء فيه موجود بصنعته عز وجل، معتمد في بقائه على ربوبيته ومتجه دائماً بطبيعته نحو تحقيق الإرادة الإلهية. في مثل هذا العالم لا شيء موجود صدفة أو عبثاً أو فارغاً من المعنى. فكل شيء خلقه تعالى بقدر. وحين يكون الإنسان جزءاً من عالم هذه صفته فإنه يدرك من العلاقات بينه وبين كل الكائنات ما لا يحده عدّ؛ وفوق ذلك كله يدرك أنه مخلوق لله وفقير إلى الله ومدين له، وأن عليه أن يحبه وأن يعبده حق العبادة. ولكي يكون المسلم مسلماً فإن عليه أن يكون وعيه دائماً عامراً بذكر الله. وما دام الله هو الخالق وهو الديان فلن تكون مسلماً حتى تفعل كل شيء كما شرعه لك قاصداً به وجه الله وحده. وكما أن الحياة والطاقة منحة من الله فكذلك كل الخير والسعادة. هذا هو ما يجب أن تكون عليه الحياة الإسلامية، أما في الفكر الإسلامي فالله هو مبدأ كل شيء وهو غاية كل شيء. فوجوده تعالى وأفعاله هي الأسس الأولى التي عليها يقوم بناء كل المعارف ونظامها. وسواء أكان موضوع المعرفة هو عالَم الذرة الصغير أم عالَم النجوم الكبير أم أعماقَ النفس أم سلوكَ المجتمع أم مسيرةَ التاريخ، فإن المعرفة الإسلامية تنظر إلى موضوع المعرفة من الناحية المادية على أنّ وراءه عوامل وملابسات تقدَّمَتْه ومنها انبثق هذا الشيء، أما التصريف الفعلي للأسباب والذي به يوجد شيء معين من بين ما لا يحصى من الأشياء الأخرى الممكنة والتي يمكن أن تؤدي إليها تلك العوامل ذاتها فذلك عمل الخالق

سبحانه وبأمره. كذلك، فإن المعرفة الإسلامية تعتبر أن كل شيء في نطاق المعرفة إنما يحقق غاية أرادها الله أو يخدُمُ غاية أخرى مراده الله تعالى أيضاً. وذلك حتى يصبح نظام الأسباب في هذا الكون نظاماً من الغايات على قمتها تقف الإرادة الإلهية لتحدد غاية كل موجود فرد وغاية كل سلسلة من الغايات وغاية النظام العام كله. وتدرك المعرفة الإسلامية أنه ليس ثمة موجود أو حقيقة أو قيمة خارج النظام العام بسلاسله وتشابكاته، النظام الذي مصدره وغايته هو الله تعالى، وأن أي شيء يتصور أو يعرف أو يقوّم خارج النظام الذي حدده الخالق فهو إما غير موجود وإما زائف أو لا قيمة له أو أنه فحسب تُصُوِّر خطأ على أنه خارجَ ذلك النظام.

٢ ـ وحدة الخلق:

ا ـ **النظام الكوني**: إن وحدانية الله سبحانه وتعالى تستلزم بالضرورة العقلية وحدة خلقه. كما قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (القرآن ٢١ : ٢٢). فلو كان هناك أكثر من حقيقة مطلقة واحدة لما بقيت هناك حقيقة مطلقة. زد على هذا أن الكون حينئذ كان سيتبع نظامين مختلفين، وإن حدث هذا فلن يكون ذلك كوناً منتظماً كما نعرف. كذلك، لن يكون من الممكن لنا نحن البشر أن نعرف كوناً يسوده أكثر من نظام. إن علينا أن نتذكر أن النظام الكوني هو الذي يمكننا من أن نتبين الأشياء في صورة موادّ أو خصائص أو علاقات أو أحداث. فمن خلال الاتساق أو الوحدة في النظام الكوني نتمكن من إدراك استمرارية المواد كأشياء وتكرر الحوادث كعلاقات سببية. وبدون

هذا النظام الكوني لا تكون الأشياء ولا الأسباب والنتائج هي هي.

إن الخليقة كل متكامل، والسبب الدقيق هو أنها من صنعة خالق واحد سرى نظامُه وتقديره في كل جزء منها. إن النظام الكوني يتكون من قوانين الطبيعة. وهذه القوانين تؤدي وظيفتها في هذا العالم وتسري إلى كل جزء أو جانب منه، مادياً كان أو فضائياً، جسمانياً أو نفسياً، اجتماعياً أو أخلاقياً - كل ما هو واقع يخضع لتلك القوانين وينفذها. هذه القوانين هي «سنن» الله تعالى في خلقه. إن الله سبحانه وتعالى ليس مجرد مَصْدَر لهذه القوانين، أو أنه خلق الطبيعة ووضع لها النظام والقانون الذي تسير عليه ثم لم يعد يتحكم فيها. إنه لم يتخل عن تدبير خلقه، وإنما هو حي فعّال إلى ما لا نهاية. وعليه فإن كل كائن يوجد وكل حدث يقع في الكون إنما يتم بأمره. حقاً إن لدى كل كائن، في أي من مراحل وجوده، قوة ذاتية دافعة تمكنه من التغير، لكن الحق أيضاً أن هذه القوة الدافعة أوجدها الله وهو الذي يحفظها. أكثر من هذا، إن هذه القوة المحركة لا تؤدي دائماً بذاتها إلى النتائج المرتبطة بها بشكل ضروري لا يتخلف، وإنما بأمر الله تتولد النتائج المعينة عن الأسباب المرتبطة بها عادةً. فالله سبحانه وتعالى قد يجعل سبباً ما يؤدي إلى نتيجته مباشرة، لكنه قد يُعْمِل سبباً ما عن طريق أسباب أخرى فيكون ما يظهر لنا على أنه سلسلة حتمية من الأسباب لا يعدوا أن يكون سبباً إلهياً تماماً كالسبب المفرد. ومن جانبنا نحن البشر، فإننا نثق بالله تعالى، أو بنظامه الكوني فنطمئن إلى أن سبباً معيناً سوف تتبعه نتيجة معينة. إذن، وكما اكتشف «الغزالي» و«هيوم»، على ما بينهما من

خلاف في المبادىء، فإن ارتباط السبب بالمسبب ليس أمراً حتمياً. فالواقع أن ما نسميه بالسببية ليس إلا عملية «تتابع» وتكرار تقودنا إلى الاعتقاد بأن سبباً ما تتبعه عادة نتيجة ما. وليس لهذه العقيدة من أساس تقوم عليه سوى كرم الكائن الأعلى، فالله سبحانه وتعالى لا يخدع أو يضلل. إنه خالق كريم نَظَّم الكون ليجعله صالحاً لأن نحيا فيه ولأن نفهمه، وكذلك كي نتمكن من ممارسة الخيارات الخُلُقية أمامنا ونبرهن ـ من خلال الأعمال ـ على ما لنا من قيمة أخلاقية.

ب ـ الخليقة: مملكة من الغايات: الله سبحانه وتعالى ﴿خلق كل شيء فقدّره تقديراً﴾ (القرآن ٢٥ : ٢). هذا التقدير هو الذي يعطي كل شيء طبيعته وعلاقاته بالأشياء الأخرى، ومنهجه في الوجود. كذلك، فإن التقدير الإلهي يُخْضِع كل شيء ليس فقط لنظام الأسباب المشار إليه سابقاً، بل أيضاً لنظام من الغايات. فكل شيء له غاية ومسوغ لوجوده يخدمه من خلال حياته. هذه الغاية ليست نهائية أبداً، وإنما هي دائماً خاضعة لغايات أخرى تكون معها سلسلة منتهية نهايتها عند الله الذي هو الغاية المطلقة والنهاية التي إليها يعود كل شيء. إن إرادته تعالى هي التي تجعل الحسن حسناً.

وعليه، فإن لكل شيء موجود علاقة السبب أو النتيجة بكل شيء آخر، فضلاً عن كونها علاقة ذات نهاية، أو هي وسيلة لغاية معينة. أليست غاية كل العلاقات على اختلاف ضروبها تنتهي إلى الله سبحانه؟! إن شبكة العلاقات غير منتهية. وهي ـ بالتأكيد مجال مفتوح أمام البشر للبحث والمعرفة والإعجاب.

لكن ما دامت مطلقة فلن يستطيع البشر أن يعرفوا سوى القليل من العلاقات على قدر الضوء الضئيل الذي معهم في تلك الغابة المظلمة إن صح التعبير. لكن واجبهم دون غيرهم أن يجتهدوا دائماً في البحث عنها واكتشافها. واكتشاف تلك العلاقات وتقنينها يعني وضع الأسس لمعرفة السنن الثابتة التي وضعها الله سبحانه وتعالى ولتقديرها قدرها.

إن وجود غاية لكل مخلوق يعمل لخدمتها، ووجود علاقات متبادلة بين الغايات والوسائل، فكلٌ وسيلةٌ إلى غاية وغايةٌ لوسيلة، كل هذا يجعل من الكون نظاماً هادفاً نابضاً بالحياة مفعماً بالمعنى. الطير في الفضاء والنجوم في السماء والأسماك في أعماق البحار والكواكب والعناصر ـ كل تلك أجزاء متفاعلة في النظام الواحد. لا شيء منها عاطل أو شرير، حيث إن كل كائن له وظيفته ودوره في حياة الكل. وهي معاً تكوّن بناء عضوياً تتفاعل أجزاؤه وأعضاؤه بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم، لكن في أجزاء محدودة جداً من الطبيعة. أما المسلمون فهم يعلمون جيداً أن الخليقة كيان عضوي، وأن كل جزء فيها يخدم غاية ما، حتى ولو كانوا لا يعرفونها. وهذا العلم هو ثمرة لإيمانهم. وحين تواجههم أمور مثل افتراس الذئب للحمل أو أكل الطائر للفراش أو تحول الجسد الإنساني إلى غذاء للديدان، فإنهم يفترضون أن كل ذلك حسن، وأنه بنشاطه الطبيعي يحقق غرضاً إلهياً أو نظاماً من الأغراض التي تنتهي إلى الإرادة الإلهية. فالمسلمون لا يمكنهم أن ينسبوا شيئاً للصدفة أو للأقدار العمياء. فالزلازل والطواعين والجفاف والكوارث في نظر المسلمين من تقدير الله. والمسلم يقبل أن هذه الكوارث ـ مهما

تكن فواجعها وآلامها ـ من فعل الله وأنها مرداة لله تعالى من أجل هدف طيب قد لا يظهر للإنسان في الوقت الحاضر. وما دامت من فعل الله، فإن المسلم لا ينهار أمامها لأنه يعرف أن الله الذي قدرها وأوجدها هو في نفس الوقت الحافظ الرحيم بعباده. لهذا، فإنها في نظر المسلم ابتلاء من الله يختبر بها عباده ليصل بهم من خلالها إلى مزيد من الثبات والإيمان والتفاؤل بالمحصلة النهائية. هذا الجانب من العقيدة الإسلامية هو على وجه التحديد ما تحتاجه البشرية في مواجهة المآسي.

وتقدير الله للعالم ككيان واحد فيه تَتْبَعُ النتائجُ الأسبابَ، تغطي الأسباب كل شيء من مصدر مطلق، وتتباين الآثار في كل حادثة في مدى لانهائي، وفيه توجد العلاقات المتبادلة اللانهائية وتربط الأشياء ببعضها في نظام من الغايات ـ هذا التقدير الإلهي نفسه مقصود به أن يهيىء المجال لحياة الإنسان وجهده الأخلاقي، هذا المجال ليس غايته الكبرى ولا هو ملك له أو شغله الشاغل. فما دام الإنسان مخلوقاً لتكون حياته عبادة لخالقه، فإن العالم يكون منحة له من ربه. وواجب الإنسان على هذا هو أن يكتشف السنن الإلهية فيه، بل أن يصونه من التدهور ويقوم بتعميره وتطويره.

جـ ـ تسخير الخليقة للإنسان: منح الله تعالى العالم للإنسان كنعمة مؤقتة ومجالاً لنشاطه ـ وجعل كل شيء فيه مسخراً له، بمعنى أنه تحت تصرف الإنسان يستخدمه لغذائه أو متعته أو راحته. هذا الاستخدام قد يكون مباشراً كما في حالة الغذاء والمتعة، وقد يكون غير مباشر كما يحدث حين تُسَخَّر قوى الطبيعة

لتنتج ما يحتاج إليه. وهناك تناسق ذاتي بين مفردات الخليقة والانتفاع الإنساني. فالحاجات الإنسانية جزء من بناء الخليقة، ومفردات الخليقة مصممة بقصد أن تخدم تلك الحاجات. كل مكونات الطبيعة ذات استعداد لقبول تأثير الإنسان فيها، ولتحمل التغيير طبقاً لتصرّفه والتحول إلى أي شكل يرغب فيه. يستطيع البشر أن يجففوا البحار ويستخدموا الشمس ويحركوا الجبال ويزرعوا الصحارى أو أن يتركوا الدنيا كلها خراباً. في إمكانهم أن يملأوا الدنيا بالجمال ويجعلوا كل شيء يزدهر، أو أن يملأوها بالقبح ويحطموا كل شيء. إن تسخير الكون للإنسان لا يقف عند حد. لقد شاء الله تعالى أن تكون العلاقات السببية والغائية المتبادلة بين أفراد الخليقة هي مادة هذا التسخير، وبدونها لا يكون للتسخير جدوى ولا معنى. فلو كان الإنسان لا يستطيع الاعتماد على الأسباب لإحداث نتائجها، أو كانت الوسائل غير صالحة لتُوصِل إلى الغايات، لَفقد الإنسان اهتمامَه بالكون ولَكَفّ عن أي محاولة لتغييره إلى الأنماط التي يجب أن يكون عليها طبقاً لوحي الله. «ما دمت مكلفاً فإنك مستطيع» هذا المبدأ الذي ينسب إلى «كانت»، والذي يعد أول مبادىء «ميتافيزيقيا الأخلاق»، كان أول من عبر عنه أحد فلاسفة المسلمين مستوحياً إياه من المبدأ القرآني ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ (٢ : ٢٨٦). وبدون هذه النتيجة الضمنية الضرورية يصبح العالم إما جامداً عديم الحركة والتغير، وإما عالماً للمجانين.

٣ ـ وحدة الحقيقة ووحدة المعرفة:

من المؤكد أن العقل تعرض له الأوهام والضلالات والشكوك. حقاً إن قدرته على تصحيح نفسه توفر له درجة لا

بأس بها من الحماية، لكنه بالنسبة للحقيقة المطلقة ـ وبسبب قصوره البشري ـ يحتاج إلى تعزيز من المصدر المبرأ من الخطأ، وهو الوحي. وبمجرد أن تُرْسىٰ القضايا المتعلقة بالمبادىء الأولية أو المطلقة، فإن العقل يكتسب عندئذ قوة بها يستطيع أن يتغلب على ما يعترضه من مشكلات. يجب أن تكون كافة افتراضات العقل الأولية مؤكدة بشكل قاطع: بعضها يكون كذلك لأنه بدهي، والبعض الآخر لأنه عبارة عن تجارب عامة للبشرية ككل؛ ولكن هنالك ضرب ثالث غير ممكن إدراكه إلا لأولئك الذين تتوفر فيهم الدرجة المطلوبة من الحكمة أو نضوج الرؤية الدينية أو الأخلاقية؛ وأمثال هؤلاء هم الذين يتوقع منهم ـ لهذا السبب ـ أن يروا الحقيقة على وجهها الصحيح. ومن هنا، فإن إدراك مثل هذه الحقائق والقيم قد لا يكون عاماً بالمفهوم الرياضي، وإنما يتطلب نوعاً آخر من المؤهلات الضرورية التي يتعين وجودها. وحيثما لا يتأتى للعقل اليقين الجازم، فإن نور الإيمان يمكن أن يمده بهذا اليقين، بل إنه ليلقي نوراً كاشفاً على سائر الفرضيات الأولية الأخرى كما يضفي مزيداً من اليقين على النظرة الشاملة للكون المبنيـة على تلك الفرضيات. إن بين الإيمان والفرضيات العقلية الأولية التي تصل إلى حد الجزم لعلاقةً وتناغُماً واتصالاً وتكاملاً. وإن العقيدة في الإسلام ـ خلافاً للديانات الأخرى القائمة على التسليم الكامل ـ لا تنفك عن العقل سواء في وظيفتها أو فيما تسهم به. فلا هي فوق العقل، وليس العقل كذلك فوقها. ولذا، فليس في الإسلام أن نضع الإدراك العقلي والإدراك الإيماني على طرفي نقيض، وأن على الإنسان أن يختار بينهما. «. . . إن اليهود يطلبون آية (معجزة)، واليونانيين يطلبون

الحكمة. ولكننا نحن نَكْرِزُ بالمسيح مصلوباً، لليهود عثرةً ولليونانيين جهالةً... إن جهالة الله أحكم من الناس، وضعف الله أقوى من الناس. فانظروا دعوتكم أيها الإخوة أن ليس كثيرون حكماء... بل اختار الله جُهَّال العالم ليخزي الحكماء و... ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء، و... أوفياء العالم والمُزْدَرىٰ وغير الموجود ليبطل الموجود...» (من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: الإصحاح الأول: ٢٢ ـ ٢٨) (والنص العربي منقول عن طبعة الكتاب المقدس ١٩٧٧ التي أصدرتها جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى ـ المترجم). مثل هذا الكلام قد يكون يهودياً أو نصرانياً أو هندوسيّاً لكنه على نقيض الموقف الإسلامي.

أما فيما يتعلق بنظرية المعرفة، فإن خير ما يوصف به موقف الإسلام هو أنه قائم على وحدة الحقيقة. هذه الوحدة مستمدة من وحدانية الله المطلقة، إن «الحق» هو أحد أسماء الله الحسنى؛ وإذا كان الله واحداً بالفعل كما يؤكد الإسلام، فلا يمكن أن تتعدد الحقيقة. والله يعلم الحقيقة ويوحيها صافية إلى خلقه، فلا يمكن أن يجيء ما يوحيه مختلفاً عن الحقيقة الواقعية، لأنه سبحانه هو خالق الحقائق كلها الواقعية منها والمطلقة. والحقيقة التي هي موضوع عمل العقل متضمنة في قوانين الطبيعة التي هي سنن الله في خلقه، وهي سنن دائمة ثابتة، ومن هنا يمكن أن تكتشف وتقنن وتستخدم مصالح الإنسانية. والوحي ـ بجانب حديثه عن وجود الله وعن الخلق ـ يبين لنا حقيقة القوانين الطبيعية أو السنن الإلهية التي يسير الكون على أساسها. ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون هنالك بيان أو تعبير عن تلك القوانين أصدق من بيان

خالقها ومدبّرها. ومن هنا، فإن النظر يقتضي أنه لا يمكن أن يوجد أي اضطراب. هذا التطابق المنطقي بين العقل والحقائق المطلقة والواقعية وما يأتي به الوحي، هو أخطر مبدأ عرفته نظرية المعرفة. هذا التطابق قائم على ثلاثة مبادىء عليها ترتكز المعرفة الإسلامية كلها:

الأول: إن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض استبعاد التعارض بين الحقائق الواقعية وما يأتي به الوحي. فكل ما يقرره الوحي لا بد أن يكون صادقاً منسجماً مع الواقع موافقاً له؛ إذ لا يتصور أن يكون الله ـ تعالى ـ جاهلاً أو غاشاً أو مضللاً لمخلوقاته. وعليه، فإن ما يبينه لهم لا يمكن أن يتعارض مع حقائق الواقع، لأنه ما أنزله إليهم إلا للارشاد والتعليم. فإن ظهر أي تفاوت بين الوحي والواقع، فإن على المسلم أن يراجع فهمه للوحي ما دام يؤمن بمبدأ وحدة الحقيقة المطلقة، هذا المبدأ الذي يحميه من خطر التأويلات والتفسيرات المتسرعة أو المغرقة في المجازات أو المعتمدة على معان باطنية لا سند لها سوى الفهم الشخصي التحكمي.
إن فهم معاني الوحي في الإسلام يقوم على ركيزتين صلبتين: العربية بمعجمها ونحوها ثم الحقائق الواقعية، وكلاهما محفوظ منذ نزل الوحي. ولهذا السبب لم يعرف الوحي القرآني مشاكل تأويلية من حيث هو، وإنما كل مسائل التفسير تدور حول أمور لغوية تتصل بالمعجم أو بالقواعد.

الثاني: إن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أنه لا يوجد تعارض أو خلاف أو تفاوت مطلق بين العقل والوحي. إنها ترفض رفضاً قاطعاً فكرة أنه لا يوجد مبدأ أو حقيقة أو فهم أعلى يمكن أن يزيل

التناقض. إن الإنسان وهو يبحث في الطبيعة ويحاول أن يكتشف السنن القانونية التي أوجدها الخالق في الكون، يمكن - بل من المؤكد - أن يخطىء أو يتوهم أو يظن أنه قد أمسك بالحقيقة مع أنه على خطأ. مثل هذا الموقف قد يخلق تعارضاً بين العقل والوحي. لكن وحدة الحقيقة ترفض هذا التعارض وترى أنه وهم، وتطالب الباحث بالعودة إلى النظر ثانية في معطياته وفحصها من جديد. فقد يكون سبب التعارض فيما انتهى إليه العلم أو العقل من نتائج، وفي مثل هذه الحالة يحسن بالباحث أن يعود إلى معطياته ويفحصها ثانية. وقد يكون السبب في فهمه للوحي، وهنا أيضاً يكون عليه أن يراجع مسلماته.

الثالث: إن وحدة الحقيقة المطلقة، أو طبيعة قوانين المخلوقات والسنن الإلهية، تفرض أنّ باب البحث في طبيعة الخلق أو في أي جزئية منه لا يمكن أن يغلق. وذلك لأن سنن الله في خلقه غير محدودة. فمهما عرفنا منها، ومهما تعمقنا في هذه المعرفة، فلا يزال هناك دائماً المزيد منها ليُكْتَشف. ومن هنا، فإن الاستعداد لقبول الجديد من البراهين، والإصرار على متابعة البحث هي خصائص لازمة للعقل المسلم الذي قَبِلَ مبدأ وحدة الحقيقة فالموقف الناقد لكل الدعاوى الإنسانية، والبحث الدائب وراء قوانين الطبيعة التي لا تكون نهائية أبداً، هما في ذات الوقت شرطان لازمان للمنهج الإسلامي وللعلم الأصيل. ومن هذا المنطلق، فإن أقوى حكم يبقى دائماً مؤقتاً، ويظل صالحاً حتى تظهر أدلة جديدة تشكك فيه أو تفنده أو تؤكد صحته. إذن، فإن أعلى حكمة، وأوثق قرار يجب أن يعقبه هذا التأكيد «والله أعلم».

٤ ـ وحدة الحياة:

أ ـ «الأمانة الإلهية: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: انبئوني بأسماء هٰؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموٰات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا. . ﴾ (٢: ٣٠ ـ ٣٤) وفي آيات أخرى من القرآن يقول الله تعالى: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان. . . ﴾ (٢٣: ٧٢)؛ ﴿ وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون ﴾ (٥١: ٥٦)، ﴿ وهو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً. . . ﴾ (١١: ٧)؛ ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً. . . ﴾ (٦٧: ١ ـ ٢).

هذه النصوص السابقة من القرآن تجيب، في كل آن، على التساؤل عما إذ كان ـ أو لم يكن ـ هناك سبب يفسر وجود الإنسان. والإسلام يؤكد كل التأكيد أن لوجود الإنسان سبباً وأن هذا السبب هو عبادة الله تعالى. إن الإرادة الإلهية على ضربين: ضرب متحقق حتم: وهو السنن الإلهية التي يجري الكون على

أساسها، وهي قوانين الطبيعة. هذه السنن ثابتة ومتحققة على مستوى الكون كله. ومن الممكن أن تفهم عن طريق الوحي أو عن طريق العقل. وقد أوجب الله على الإنسان أن يبحث عنها وأن يفهمها ويقننها من أجل المعرفة ثم يستخدمها لصالحه. أما الضرب الثاني فيتحقق فقط عن طريق الحرية والاختيار، أي عندما تتحقق في وضع يكون فيه تحقيقها وإهدارها، أو عدم تحقيقها، إمكانيتين متميزتين. وتلك هي القوانين الخُلُقية. إنها تتعايش مع قوانين الطبيعة، بمعنى أنها تتحقق دائماً في سياق من الأشياء والأشخاص والعلاقات في العالم الواقعي، لكنها تنتمي إلى ضرب يختلف عن الواقع. إنها عملية أولويات. فأن تصبح جزءاً من الموقف الواقعي وأن تتحقق من خلاله أوْلاً، أمر يعتمد على تحقق ذلك الموقف، أو على المتطلبات الخاصة بهذه القوانين الخلقية. إنها تتطلب ممارسة الشخص لإرادته ممارسة حرة. ولهذا فإن «السماوات والأرض والجبال» عجزن عن حمل «الأمانة» الإلهية لعدم وجود هذه الإرادة لديهن. وحملها الإنسان لأنه دون باقي المخلوقات يتمتع بهذه الحرية الأخلاقية. وهذه الإمكانية لديه جعلته في وضع أسمى من الملائكة الذين لا يتمتعون بالحرية أن يطيعوا وألا يطيعوا. وهذا هو السبب من أمر الله لهم أن يسجدوا لآدم. فكان انعدام حرية الإرادة لديهم سبباً في إنزالهم عن مرتبة الإنسان. هم كاملون ويستطيعون فقط أن يطيعوا أوامر الله. إنهم يقدسون الله ويسبحونه دائماً ولا يعصون له أمراً. وعلى هذا، فإن طاعة الإنسان لله أعلى قيمة من طاعة الملائكة. وما ذلك إلا بسبب أنها تصدر عن إنسان لديه القدرة أن يفعل عكس ذلك. فإعراض مثل هذا الإنسان عن طريق الشر، أو عن هوى

أدنى، أو عن الخير المادي النفعي الأناني، ثم اتجاهه بمحض اختياره إلى فعل ما يتطلبه القانون الأخلاقي، إنما هو إحراز لقيمة أسمى. إن الحياة الأخلاقية لهي ضرب من الحياة أعلى وأنبل وأعظم. وإن النمط الأعلى من الإرادة الإلهية يدخل التاريخ ويصبح واقعاً حين يختار البشر في حرية أن يحققوه. ومن هنا، فإن الإنسان يعتبر وصلة كونية بين الإرادة الإلهية والواقع الحقيقي. وواضح أن وجوده عظيم الأهمية.

ب ـ الخلافة: إن حمل الإنسان للأمانة الإلهية يجعله في مقام الخلافة أو النيابة عن الله. وتتمثل خلافته في إنفاذ القوانين الأخلاقية التي هي والقوانين الدينية شيء واحد، وإن كانت الأخيرة تتحكم كذلك في الشعائر التعبدية وهي قليلة. لكن حتى هذه لها جوانب ليست تعبدية أو أخروية محضة، وإنما لها ـ من حيث خصائصها وآثارها ـ علاقة قوية بهذه الدنيا. أما باقي التشريعات الدينية أو الأخلاقية فكلها عبارة عن ممارسات فعلية للحياة والوجود والعمل. وما تضيفه هذه القوانين للممارسات الفعلية إنما هو الصفة أو المنظور أو الطريقة التي يتم بها تصريف تلك الممارسات المتشابهة. من الطبيعي أن يشتهي الناس وأن يكبروا ويتمتعوا، أن يطلبوا وأن يتملكوا، أن يحبوا وأن يتزوجوا وأن ينجبوا، أن يتسلطوا وأن يمارسوا القوة... الخ، والإسلام يحب لكل هذه الأنشطة أن تستمر، إنه لا يشجبها ولا يود لها أن تتوقف كما هو شأن النصرانية والبوذية. كل ما يطلبه الإسلام من الناس أن يُقْدِموا على هذه الأفعال بدوافع مختلفة وأن يؤدوها بطريقة مختلفة. الدافع المختلف هو أن يبتغوا بها وجه الله. والأسلوب المختلف هو أن يؤدوها بالعدل وبالحق بحيث تؤدي

إلى تحقيق غاياتها النفعية والأخلاقية دون أن يلزم من ذلك حدوث نتائج غير مرغوبة أو غير عادلة أو غير أخلاقية.

والوحدة المشار إليها سابقاً تأتي من أن الإسلام لا يفصل الدين عن الدنيا. فمن وجهة نظره، توجد حقيقة واحدة فقط لا حقيقتان كما هو شأن الأديان التي تقسم الحياة إلى قطاعين: ديني مقدس وعلماني. ليس هناك شيء مقدس بهذا المعنى سوى الله. كل شيء في نظر الإسلام مخلوق وليس مقدساً، وهو يفترض أنه خير ما دام من صنع الله. وطريقتنا في أداء ما نفعل هي التي تحقق أو لا تحقق المتطلبات الدينية أو الأخلاقية. فإن فعلت فالعمل خير، وإلا فهو شر. وعلى هذا، فإن أفعال الإنسان وحده هي التي يمكن أن تكون خيراً أو شراً بناء على ما تؤول إليه من تحقيق العدل والحق والجمال والسعادة أو عكس ذلك. وعلى هذا، فصفة «التدين» لا تعني أن ينسحب الإنسان من الممارسات المعتادة في الحياة ولا أن يقتصر على الأعمال الخالية من أي قيمة نفعية. فأمر الدين كله إنما هو صفة لنفس الممارسات الحياتية. وعلى هذا الأساس يبقى الإسلام ملتحماً بواقع الحياة والتاريخ. وفي خارج نطاق الحياة والتاريخ ليس ثمة فضيلة ولا تقوى، بل ولا إسلام. قد ترى النصرانية والبوذية الدين في غير مجريات الحياة والتاريخ، وقد تفرضان إذلال النفس والتنسك والرهبنة والمجاهدة، بل تجميد تلك المجريات نفسها. إنهما تفعلان ذلك لأن مجريات الحياة والتاريخ في نظرهما أهل للشجب على أساس أنها شر ومحكوم عليها بالهلاك. فالمسيحية تؤمن بأن الخليقة «آثمة» و«شر» و«لا خير فيها». وترى الخلاص من ذلك في الإيمان بالمسيح وتقليده. كذلك، فإن البوذية تؤمن بأن الخليقة «شر» لا

شيء فيه سوى الألم والمعاناة، وتفرض إنكار الذات والحياة كباب للخلاص من مجريات الحياة والتاريخ.

أما الإسلام فإنه ينكر مثل هذه المسلمات المسبقة التي تلعن الحياة والتاريخ، ويرى أن الخليقة خير وأن الله سبحانه وتعالى خلقها لغاية طيبة وتحقيقها يتأتى بالإخلاص لله وطلب العدالة للبشر. والمشاركة في مجريات الحياة من أساسيات نظرة الإسلام للإنسان. لقد عَينَّ الله سبحانه وتعالى له هدفين ليحققهما. **الأول**، أن على البشر أن يجعلوا الكون يسير حسب السنن الإلهية، أي أن يُعيدوا ترتيب جزئياتها بحيث تصبح بكل طاقاتها في خدمة الحاجات الإنسانية، يستوي في ذلك الجزئيات المادية (من طعام ومأوى وراحة وإنجاب) والخلقية والفكرية والجمالية. **الثاني**، أن على البشر في عملية توجيه الخليقة نفسها أن يستعلوا بالقيم الخلقية فينتقوا منها ـ للدخول في عمليات التوجيه تلك وعلى أسس أخلاقية ـ ما يحقق ما يقتضيه الإخلاص لله وتحقيق العدالة للبشرية.

إن مضمون «الأمانة» الإلهية، وبالتالي مضمون «الخلافة»، هو بناء الثقافة والحضارة والسمو بهما، إن محور «الخلافة» هو تحقيق السلام والأمن على الحياة والممتلكات وتنظيم البشرية في مجتمعات منظمة قادرة على إنتاج الطعام وعلى معاجته وتخزينه وتوزيعه على الجميع بشكل كاف كماً ونوعاً، وتهيئة المأوى والدفء والراحة والاتصالات واليسر، وإعداد ما يكفي من الأدوات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، وأخيراً، تهيئة الفرص للتعلم وتحقيق الذات وللتمتع الترفيهي والجمالي. وهذا مرادف لإقامة ثقافة

وحضارة ولبناء الحياة والكون وترقيتهما لقد أمر الله تعالى بأن يتم كل هذا وأعلن أن ذلك هو السبب الحقيقي لخلق العالم. والدافع الإلهي أسمى من وراء كل هذا هو أن يبرهن البشر على أهليتهم من الناحية الأخلاقية على القيام به. وفي إمكانهم أن يحققوا ذلك بأن يمارسوا أنشطتهم العادية في الحياة باسم الله ولوجهه وأن يحرصوا على إقامة ميزان العدل خلال ذلك كله. لقد فهم المسلمون بحق أن هذه «الخلافة» عمل سياسي في المقام الأول. وكثيراً ما ربط القرآن الخلافة بإقامة السلطان السياسي (الأعراف: ٣٧) وبتحقق الأمن والسلام (النور: ٥٤) وبالقضاء على الأعداء وتوريث ملكهم لعباد الله وخلفائه (الأعراف: ١٢٨؛ يونس: ١٤، ٧٣). والعمل السياسي، أو المشاركة في العمليات السياسية كانتخاب الحاكم أو بيعته وإعطاء المشورة والنصيحة للحاكم ووزرائه وترشيد تصرفاتهم ونقدهم أو حتى مساءلتهم ـ كل ذلك ليس مرغوباً فيه فقط، بل هي واجبات أولية دينياً وأخلاقياً. والفشل في أداء هذه الواجبات يعني الوقوع في الجاهلية كما قال الرسول ﷺ. من ناحية أخرى، تعتبر المشاركة في الحياة السياسية والاقتصادية للمسلمين جزءاً لا يتجزأ من العقيدة نفسها. فقد حارب أبو بكر والصحابة رضوان الله عليهم، من رفضوا تلك المشاركة وإن احتفظوا بالعقيدة واعتبروهم كفاراً خرجوا من الإسلام كله. فإذا كانت المسيحية تعتبر العمل بالسياسة شراً مستطيراً وتحذر من المشاركة فيه، فإن الإسلام يعتبر ذلك جوهرياً ويحرم التخلي عنه. والأمر نفسه، وبتأكيد أشد، صادق بالنسبة لبناء الثقافة والحضارة. فالإسلام يعتبر أنّ بناءهما هو الوظيفة الأساسية للدين. ولهذا، فإن تخلى

جماهير المسلمين في عصور الضعف عن المشاركة في النشاط السياسي لمما يتناقض كلية مع معايير الإسلام.

كذلك، فإن المبدأ نفسه يصدق على متطلبات السلام والأمن، وهما أثمن جائزة يسعى إليها العالم الإسلامي اليوم. فكل مسلم يجب أن يأمن على حياته وممتلكاته وعلى كرامته الشخصية ومكانه في المجتمع. وتوفير هذا المطلب من أول الواجبات الاجتماعية. ومن أجل هذا، طلب الإسلام من كل مسلم أن «يُسَيِّس»، أي أن يُوقَظ ويُنَظَّم ويدفع إلى أن يعمل على تحقيق هذا الهدف لنفسه، وكذلك لأفراد أسرته ولجيرانه ولكل إخوانه من المسلمين.

جـ ـ الشمولية: إن منهج الإسلام لبناء الثقافة والحضارة منهج شامل، كما يجب أن يكون إن فهمناه حق الفهم. وهذا الشمول هو من الخصائص الأساسية للشريعة. فكل جانب من الحياة الإنسانية له حكمه الملائم في الإسلام. هذا الحكم قد يكون واضحاً وقد يكون غير واضح، ملزماً كما في «الواجبات» و«المحرمات» أو غير ملزم كما في الإرشادات «المندوبة» و«المكروهة» و«المباحة». المهم أن لا شيء يَنِدُّ عن أحكام الإسلام. حقاً إن دائرة «المباح» في الإسلام واسعة، لكن سعتها ليست دليلاً على عدم وجود ما يلائمها في الإسلام، وإنما سببها أن المباحات تقع خارج نطاق «المطلوبات» المحددة، سواء أكانت «إلزاميات» كالواجبات والمحرمات، أو «أفضليات» كالمندوبات والمكروهات. وخارج هذا النطاق تقع الثقافة وطرائق المعيشة، وهي لا تقل أهمية في نظر الإسلام عن قطاع «المطلوبات» التي

تعتمد، في الحقيقة، على التربية الموفقة؛ فهي تمثل المنطلقات الأولية لها وبدونها تصبح غير واردة. فلا شيء يمكن فرضه بالقوة ما لم تكن الجماهير قد تربت عليه من قبل وسبق اقتناعها به.

ومن هنا، فإن واجب المفكر المسلم أن «يُؤَسْلِمَ» الحياة، أي أن يحدد نظرياً وتطبيقياً علاقة الإسلام بكل جزئية في الحياة الإنسانية. ولقد أوضح القرآن ذلك بالفعل في عدد من ميادين النشاط الإنساني، وذلك عن طريق تحديد مكانة الأفضليات والمباحات، كما في التحية وخفض الصوت والاستئذان عند الدخول، وسرعة الانصراف بعد تناول الطعام (عند الغير) وإحسان معاملة الوالدين ومن يكبروننا... الخ. وقد بذل الرسول (ﷺ) ما في وسعه لاستكمال التطبيق سواء بالإرشاد أو بالقدوة العملية في مجالات كيفية الأكل والشرب والمحافظة على النظافة والترويح عن النفس ومعاملة الجيران... الخ. وأسلوب الحياة الذي قرره الإسلام تفصيلياً في العصور الأولى وما تفرع عن تلك التوجيهات القرآنية والنبوية، نراه اليوم بحاجة إلى إعادة تعريف وبلورة واستكمال بحيث تغطي ما لم يكن معروفاً من الأنشطة زمانئذ، أو تصبح أدق تطبيقاً على ما ترتب على التمدن الحديث من مجالات تمتد من الكماليات إلى الضروريات. مثال ذلك: مجالات العلاقات الاجتماعية والسفر والنقل والترفيه والفنون السمعية والبصرية ووسائل الاتصال الجماهيري وغيرها من الميادين التي تحتاج إلى أن تمتدّ إليها توجيهات الإسلام.

٥ ـ وحدة الإنسانية:

ما دامت الوحدانية صفة لله عز وجل، وهو سبحانه الخالق،

فلا بد أن تمتد صفة الوحدة الإلهية إلى كل البشر لأنهم من خلقه. ومن الطرف الآخر، لا بد للبشر أن يرتبطوا جميعاً كمخلوقين بخالقهم. ولا يمكن أن يتعدد وجودهم من حيث هو، وإلا أدى ذلك إلى تعدد مماثل في الخالق. حقاً، إن البشر يمكن أن يتفاوتوا في الخصائص من العنصر واللون والبنية والشخصية واللغة والثقافة؛ لكنّ أيّاً من هذه الخصائص لا يمثل قيمة وجودية، بمعنى أن يجعل من الشخص كائناً مختلفاً، كما لا يستطيع أي منها أن يؤثر في وضع الشخص كمخلوق أمام الله سبحانه وتعالى. فقيمتها ليست أساسية في مخلوقية الشخص لله، هذه الخصائص السلالية (الإثنية) التي تحدد معالم شخصية صاحبها وسلوكه قد يكون لها دور في امتيازه أو انهياره أخلاقياً. وهو أمر كثير الوقوع، لكن دورها في تحديد النتائج الأخلاقية ليس ضرورياً ولا نهائياً ولا مطلقاً. فليس من الضروري أبداً أن شخصاً ذا تركيبة خاصة متخيلة من تلك الخصائص يكون ذا قيمة خلقية عالية أو هابطة. فجوهر بناء وجود الشخص يجب أن يبقى إلى حد ما حراً من سيطرة تلك الخصائص قادراً على أن يتبع قوتها الموجهة أو أن يخالفها عن طريق تحويل تلك القوة إلى غايات أخرى.

هذا المبدأ هو السبب الذي يقف وراء الحقيقة الإلهية التي قررها القرآن: ﴿ يأيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ﴾ (الحجرات: ١٣). إن الانتماء إلى نوع (ذكر أو أنثى) أو إلى قبيلة أو أمة أو إلى سلالة دون أخرى ربما كان أوضح خصائص البشر وأول عوامل التمييز بينهم. تلي ذلك عوامل اللغة والملامح الوراثية والذكاء والمهارة والقوة البدنية، وهي أقل ثباتاً

عند الميلاد وأكثر قبولاً للتغير. ثالثاً، تأتي الشخصية بخصائصها ذات القابلية العالية للتغير والتي تكوّن الفضائل والرذائل: من الحكمة والمعرفة والتقوى والصبر إلى الجهل والحمق والكفر والتمرد. هذه العوامل كلها تشكل الشخصية الإنسانية وطريقة الحياة، على الأقل من حيث الأساس والقاعدة. أما بقية بناء الشخصية ونمط الحياة فيتكوّن من العادات أو الآراء، من الميل أو المزاج، من السمعة ومن تاريخ وتقاليد هذه الشخصية عبر تراكمات أعمالها. كل من هذه العوامل له دور في بناء الفرد الإنساني وفي تحديد هويته. لكنها تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، فبعضها خَلْقيّ محدد من قَبْل المولد، وهو ـ لهذا ـ ثابت لا يتغير، وبعضها مكتسب في مراحل مختلفة من الحياة، ولذلك ينمو ويتطور، أو يتغير ويزول.

والبشر معرضون كثيراً لأن يخطئوا تقدير قيمة هذه الخصائص وطبيعة الدور الذي تقوم به في حياة الشخص. ففي التاريخ لم يكن لأي من خصائص الإنسان دور في تحديد الحكم على الأشخاص والجماعات أعظم من الدور الذي قامت به المجموعة الأولى من الخصائص، وأعني بها النوع والسلالة. ومع ذلك فهي أشد تلك الخصائص براءة من هذه التبعة نظراً لأنها أقلها اعتمد على القرار أو العمل الأخلاقي، وأضعفها قابلية للتغير. إن طبيعة المباشرة والوضوح فيها كثيراً ما تضلل الحكم فيأخذها على أنها حقائق وجودية ويبنى التفرقة والتمييز على أساسها. وهذا هو السبب في أن القرآن بدأ بها وقصد إلى هدم كافة الأحكام المبنية عليها. إن هذه خصائص من صنع الله، ضرورية ولا تتغير، وقد خلقها الله لتكون فقط عوامل تعارف. إن علينا أن نأخذها على

أنها «جواز سفر» أو «هوية شخصية» لا تنبىء بشيء عن قيمة صاحبها أو طبيعته الأخلاقية. وهذا هو معنى الآية إن أخذناها على المعنى الحرفي. أما إن أخذنا «لتعارفوا» مأخذاً مجازياً، فإن القرآن حينئذ يخبرنا بأن الله قد خلق الخصائص النوعية والسلالية كي يتمكن البشر من خلالها من التكامل والتعاون.

إذن، كل البشر خلق واحد ومتساوون: وهذا هو أساس العالمية في الإسلام. كل البشر عند الله سواء باستثناء أعمالهم التي تميز بينهم في الفضائل الخلقية والإنجازات الحضارية والثقافية. فإذا كانت هذه الأعمال تعتمد على خصائص ثقافية موجودة تعرقل مثل هذا الإنجاز، فالواجب علينا أن نغير هذه الخصائص وننمّي أخرى ـ وهذا أمر في الإمكان دائماً، والباب مفتوح أبداً أمام مثل هذا التغيير. أما حين يتم الحكم على أساس الخصائص الثابتة، فإننا نرتكب جريمة أخلاقية، وهي التعصب العنصري. والتورط في جريمة كهذه ينذر بشر مستطير: انتهاك وحدة البشرية وانتهاك الوحدانية الإلهية أيضاً. لا شيء أشد مقتاً عند الله تعالى من الشرك، ولا شيء أقرب إلى الشرك من التعصب العنصري. ولا شيء كالعنصرية أدى إلى العداوة والحروب وإراقة الدماء بين البشر. لقد ألصقت بالدين وبضروب كثيرة من الأسباب تهمة التسبب في إثارة مختلف الصراعات بين جماعات البشر. والحق أن كافة الصراعات تقريباً بين الجماعات يمكن إرجاعها إلى قرارات عنصرية اتخذت على أساس الخصائص الثابتة لمن يُدْعَوْنَ «أعداء».

إن الإسلام لا يلتقي أبداً مع التعصب العنصري الذي يُعتبر

التميزُ العنصريُّ والقوميةُ من صوره السائدة. إن الصراع بينهما لاحدَّ له نظراً لأن ما ينزله التعصبُ العنصرّي من دمار في الروح الإنسانية ـ فاعلة أو مفعولة له ـ لا يمكن جبره.

وإدانة التعصب العنصري كما يفعل الإسلام ليست إدانة للوطنية، إذ الأخيرة تعني موقفاً من الحب والإعزاز. والتقدير لحياة الجماعة وقيمها، ومن الاستعداد لتحمل المرء كل بذل وتضحية، بما في ذلك التضحية بالنفس، في سبيل الدفاع عنها. فليست الوطنية على هذا بريئة من الشر فقط، بل إنها عمل إيجابي صالح يفرضه الإسلام. فمن الواجب على المرء دينياً وأخلاقياً أن يحب قومه ويخدمهم ويدافع عنهم ضد كل اعتداء وظلم، وكذلك أرضه. فما أبعد الفرق بين التعصب العنصري والوطنية. إن جوهر الأول هو الادعاء بأن مزايا الشخصية السلالية هي المعيار المطلق للخير والشر؛ وأشيع صوره هي اعتبار سلالة ما أسمى من كل البشر نتيجة للخصائص الذاتية في أفرادها ثم إجلال تلك المزايا والتمسك بها على حساب كل المزايا الأخرى. والتعصب العنصري بهذا الزعم يتطلب الولاء المطلق له ممن يؤمنون به، ما دامت الدعوى التي يقدمها هي أن العنصر هو الحقيقة المطلقة. إن الشعب الملتزم بالتعصب العنصري، يهودياً كان أو ألمانياً أو فرنسياً أو روسياً، يدعي مخلصاً أن اليهود أو الألمان أو الفرنسيين أو الروسي هم الحقائق المطلقة التي تمثل المعيار المطلق للخير والشر. إن ما غرسته الصهيونية في روح الشعب اليهودي، وما غرسه «هيجل» و«فيخته» و«نيتشه» وغيرهم من المفكرين الرومانسيين في روح الشعب الألماني عما هو «الوطن الألماني»؛ وما غرسه «روسو» و«فوستيل دي كولانج» وغيرهما من روح الشعب

الفرنسي عما هي «الأمة» أو «فرنسا»، قد وصل إلى ما يشبه المبدأ المقدس الذي نفخ الغرور في اليهود والألمان والفرنسيين فصار عندهم أشبه بالحقيقة المطلقة للمعتقد الديني. وإن ما تتطلبه هذه النظريات الغامضة من اعتداد بالنفس ومن إلهام، وإنّ التأثير الشديد الذي تمارسه على قلوب معتنقيها وخيالاتهم، ليشبه تماماً تلك الآثار المرتبطة بحقيقة تتصف بأنها غامضة وهائلة وأخاذة، ذات أولوية شاملة ومطلقة.

أما المسلم فهو الذي يعتقد نقيض ذلك تماماً، لأن «إلهه» هو الإله الواحد على الإطلاق لكل شيء، وهو المقدمة الضرورية التي تبنى عليها لزوماً كل صور الوحدة المشار إليها سابقاً بالإضافة إلى وحدة الإنسانية. ومن التناقض في التسمية أن نقول «مسلم قومي» أو «عنصري». والمسلم الذي يعلن أن ولاءه لقوميته إما «منافق» أو «زنديق» وإما رجل ذو ولاء سطحي زائف لا يثبت أمام إغراء الرشوة والمصالح الشخصية. وهذا هو أيضاً السبب الذي يفسر كيف أن الحياة العملية للغالبية العظمى ممن يدعون بالزعماء القوميين المسلمين الملتزمين قد خلت كثيراً من الانسجام والإخلاص للمبدأ المعلن والتكامل الخلقي.

إن معرفة الإنسان في العصر الحاضر تكاد تقوم كلها على العنصر كتحديد مطلق للإنسانية، ومعرفة المجتمع تقوم على العنصر كأساس مطلق للنظام والبناء الاجتماعي. ولم تتح أبداً فرصة التحقق الواقعي لمبدأ عالمية «عصر التنور» قبل أن يتم رفضها لصالح المبدأ العنصري الذي دانت به الرومانتيكية. حتى عالمية «عصر التنور» كانت نظريةً وموضعَ شك، إذ كانت ـ حتى

على يد أمير هذه الحركة «إيمانويل كانت» ـ تَعْتَبِرُ أنّ مختلف شعوب البشر تتدرج ما بين رفيع ووضيع على أساس من تحيز أوربي موروث ومن الخصائص الذاتية الداخلية للشعوب الأسيوية والإفريقية والأوربية. لقد اكتسحت الرومانتيكية الغرب كله، وأتت على كل أثر للعالمية العقلانية أو النصرانية، وقدّمت أعظم دعم للدراسات الإنسانية والفنون والعلوم الاجتماعية. ولقد حدد المفكرون الإنسان على أنه حصيلة لوظائف مجموعة من الحقائق والقدرات والقوى التي تنبثق وتتغذى من وطن غامض في تصوراتهم ومن سلالة أو شعب أو دم يمتد في غموض إلى أبعاد زمنية لا نهائية، ومن تقاليد تمتد جذورها إلى أعماق وأبعاد لا نهائية في كل من الزمان والمكان. أضف إلى هذا أن هذه الأمور لا تفهم عن طريق العقل، وإنما تلتقط من خلال العواطف والتجربة المباشرة والحدس، وتجد أبلغ وأوضح تعبير عنها في الفنون، خاصة الموسيقى والرسم والأدب. حتى الدين، تصوره أولئك المفكرون الرومانتيكيون، خاصة «شلَيِرِ ماخَر» Schleiermacher، تصوراً جديداً على أنه يرتكز على أساس وحيد هو تجربة المؤمن به التي لا يمكن وصفها، أي أحاسيسه الشخصية، وهو تصور يَحُطُّ من قيمته بعد ذلك أنّه غير عقلاني بل اعتباطي تحكمي لا يختلف في طبيعته عن «الأوهام» و«المخدرات».

لقد استمرت الدراسات الإنسانية في الغرب تتحدث عن «الإنسان» و«الإنسانية»، لكن بالمفهوم الرومانتيكي الذي يحصر مضمون هذه المصطلحات في «الإنسان الغربي» و«الإنسانية الغربية». وإذا كانت لم تستبعد تماماً من دائرة الإنسانية ملايين

«السود» و«الحمر» و«الصفر» في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، فإنها تعدهم مخلوقات قريبة من الإنسانية يمكن أن تستعمر وأن تستغل لصالح الإنسانية الغربية. من الأكيد أن دراستهم واجبة، لكن المطلوب هو أن يُدْرَسوا كعينات لعصر مَرَّ به الغرب في فترة ما، وبذلك يساهمون في تمكين الإنسان الغربي من أن يفهم تاريخ تطوره.

إن التعصب العنصري بطبيعته مثير للشقاق والتفرق، إذ من الممكن دائماً أن تجد داخل أي مجموعة مجموعات أصغر تكشف عن مزيد من التركيز للخصائص الداخلية أكثر من المجموعة الأكبر، وهذه «الحقيقة» يمكن أن تمهد القاعدة لمجموعة أصغر تطلق على نفسها كياناً عنصرياً مزوداً بخصوصيات أقوى. وإذا كانت الرومانتيكية قد فصلت الغربيين عن بقية العالم الذي كانوا على وشك أن يحتكوا به احتكاكاً مكثفاً نتيجة لتطور الصناعة والنقل، فإنها قد مزقت الغَرْب إلى قوميات متعادية متنافسة تسعى كل منها إلى «مصالحها القومية» وكأنها وحدها معيار الخير والشر. وسرعان ما تعلمت أمم الغرب من بعضها وقبلت كل منها ما انتهت إليه الأخرى. كما انتقلت بسرعة النظرات والتحليلات والتعبيرات الرومانتيكية من أمة إلى أخرى على أنها حقائق ثم تبنتها وطبّقتها كما لو كانت من صنعها.

وبتأثير الدفعة التي قدمتها الرومانتيكية تطورت العلوم الاجتماعية الغربية: التاريخ والجغرافيا والاقتصاد وعلم السياسة والاجتماع والأنتروبولوجيا (علم الإنسان). وهي تقوم كلها، كل بطريقته الخاصة، على أساس نظرة عنصرية مؤداها أن الأمة

أو الكيان العنصري؛ بمفهومها المحدد جغرافياً وسكانياً وتاريخياً لكن الأخير يكون مُشَوَّشاً وغير محدّد، هي الوحدة المطلقة للتحليل والتقويم. وحينما يتحدثون عن «المجتمع» أو «النظام الاجتماعي» فإنهم يقصدون كيانهم ونظامهم القومي. بعضهم يذكرها صراحة منذ الصفحة الأولى، وآخرون لا يصرحون بها على أساس أنها أقوى الفروض الأساسية التي لا تحتاج إلى ذكر. ويؤكد علم الاجتماع بجرأة على المقولة العنصرية لأنه يتعامل مباشرة مع المجتمع والنظام الاجتماعي. وعلى إثره يقفو علم السياسة. أما علم الجغرافيا والتاريخ الغربيين فلا يتصوران العالم إلا كتابع للغرب، عالم يدور حول بريطانيا أو أمريكا أو فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا، التي هي بمثابة القلب والنواة له، وذلك حسب المؤلف ومكان النشر. أما علم الاقتصاد الغربي فقد كان في مراحله الأولى بعيداً عن الموضوعية العلمية بحيث ادَّعى لنفسه مكانة العلم العالمي. لكنه أرجع إلى مكانه كتحليل غربي لأمة غربية على أيدي النازيين وهم قادة الرومانتيكية والعنصرية في أوربا. ونفس الدعاوى الفارغة التي أسبغها كارل ماركس على هذا العلم أنكرها لينين وخروشوف من خلال الممارسة العملية. لكن نظام حكمهم لم يسمح حتى الآن بإعلان أي شيء مكتوب بهذا الخصوص، وإن سمح بقدر معقول من الإعلانات العنصرية (المدعوّة هنا بالاشتراكية ـ القومية) أن يدرج في الدستور الجديد للاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٨.

وأخيراً، فإن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) يعتبر أجرأها جميعاً. فالإنسانية في نظره تعني العنصرية، وأنهما منطقياً متكافئتان

وقابلتان لتحل إحداهما محل الأخرى. وفي القرنين الأخيرين كان تأثير هذا العلم يسوق البشرية إلى سعار من الوعي بالعنصرية وذلك من خلال فرز مجموعات ثانوية واحدة بعد الأخرى وإقامة نظام من المبادىء والقيم لكلّ مستقى من الخصائص الذاتية لها أو مما لفّقه دعاة هذا العلم وأعلنوا أنه ذاتيّ ومختص بتلك المجموعة العرقية. فبدلاً من إدراك الخصائص العالمية في الإنسان وتأكيدها، إذا بهذا العلم ينمي ويضخم بشكل كبير الجوانب الخصوصية.

اعترف الإسلام بالأسرة على أنها وحدة البناء في النظام الاجتماعي، ودعّم صورتها الممتدة بالتشريعات المتعلقة بالإرث والإنفاق حتى يمكّن أكبر عدد ممكن من أعضاء الأسرة أن يأكلوا من مطبخ واحد، وأن يتكافلوا، من ثم، اقتصادياً. والغاية هي أن يصبح أفراد الأسرة الممتدة، من خلال عيشهم في تقارب، وكثيراً ما يكون ذلك تحت سقف واحد، متكاتفين في سبيل صحتهم العقلية والعاطفية والاجتماعية وصالحهم العام. أما فيما وراء الأسرة فإن الإسلام لا يعترف بالجماعة القومية أو العنصرية، وإنما بالإنسانية والنظام الاجتماعي العام. فلا شيء يقف بين دائرتي الأسرة والإنسانية. وهما معاً يكونان كل شيء في النظام الاجتماعي. وعضوية الإنسان في هذا النظام هي ما يهتم به الإسلام في العلوم الاجتماعية. أما سائر التقسيمات للبشر بين دائرتي الأسرة والإنسانية، كالقطر والإقليم والشعب والأمة، فإن الإسلام يعتبرها وحدات إدارية بحتة لا علاقة لها بالمرة بتحديد الخير والشر ولا بفهم الشريعة أو تطبيقها. وعليه، فإن ما عند الغرب الحديث من فنون وعلوم إنسانية واجتماعية يجب أن تعاد

صياغتها برمتها، وأن تقوم قواعدها الأولية على أسس جديد يتطابق مع عالمية الإسلام. كما ينبغي أن يمدها المفكرون المسلمون بقيم جديدة، أعني بقيم وغايات إسلامية، لتكون بمثابة أهداف عليا لترشيد البحوث الاجتماعية.

رَابعًا: خطّة العَمَل

أهداف خطة العمل هي:

١ ـ إتقان العلوم الحديثة.

٢ ـ التمكن من التراث الإسلامي.

٣ ـ إقامة العلاقة المناسبة بين الإسلام وكل من مجالات المعرفة الحديثة.

٤ ـ البحث عن وسائل الربط الخلاق بين التراث والمعرفة الحديثة.

٥ ـ الانطلاق بالفكر الإسلامي في المسار الذي يقوده إلى تحقيق سنن الله سبحانه وتعالى.

وإذا أردنا إدراك هذه الأهداف فعلينا السير في عدد من الخطوات المرتبة ترتيباً منطقياً يحدد درجة الأولوية لكل خطوة.

(أ) ـ الخطوات الضرورية لأسلمة المعرفة:

الخطوة الأولى: إتقان العلوم الحديثة: تقسيمها إلى أنواع:

من الواجب أن تقسم العلوم، في صورتها الراهنة وفي أعلى مستويات تقدمها في الغرب، إلى أنواع وقواعد ومناهج ومسائل

ومواضيع. وهذا التقسيم يجب أن يكوّن صورة لمحتويات كتاب دراسي يغطي مناهج هذا الفرع ومجالاته، وبمعنى آخر، يمثل محتوى مقرر دراسي في هذا الفرع لا يستغني طلاب الدراسات العليا في هذا التخصص عن دراسته واستيعابه. مثل هذا الوصف للمقرر لا يكفي أن يُصَبَّ في تعبيرات اصطلاحية وعناوين لأبواب وفصول، بل لا بد أن يكون على شكل جمل معبرة توضح معاني التعابير الاصطلاحية وتفسر الأبواب والقواعد والمسائل والمواضيع الكلية لهذا الفرع الدراسي في أكمل شكل غربي له.

الخطوة الثانية: المسح الشامل للعلم:

يجب أن تتم عملية مسح شامل لكل علم من العلوم وأن تكتب عنه المقالات لتبين الخطوط العريضة لنشأته وتطوره التاريخي ونمو مناهجه واتساع ميدان رؤيته والإضافات الأساسية التي أسهم بها المتخصصون فيه. كما يجب أن يلحق بكل مسح قائمة شارحة تعرّف بأهم مراجع هذا العلم؛ فتضم بشكل مبوب منظم أهم الكتب والمقالات التي تقوم على أساسها مادة هذا الفرع والتي بدونها لا يمكن الوصول إلى إتقانه.

إن من أهداف هذه الخطوة أن يتم التأكد من أن المسلمين قد فهموا هذا العلم واستوعبوه بكل مراحل تطوره في الغرب. فإذا ما تحقق هذا المسح للعلم بشكل جيد ودعّم بالشروح والهوامش الشافية فإنه سيقدم للمتخصصين فيه أساساً لفهم مشترك لهذا العلم الذي ينتظر منهم أن يصبغوه بالصبغة الإسلامية. ولما كانت فروع العلم قد أصبحت في الغرب اليوم متعددة الجوانب بسبب

انفجار المعرفة، فقد بات من الضروري للعلماء المسلمين ممن يتناولون هذا الفرع أن يقفوا على أساسه وأن يتفقوا فيما بينهم على الموضوع الذي سيبذلون جهودهم في «أسلمته» من حيث طبيعته وتاريخه وخصائصه وحدوده.

الخطوة الثالثة: التمكن من التراث الإسلامي: المختارات:

قبل تفصيل العلاقة والملاءمة بين الإسلام وعلم معين، يجب أن نكتشف ماذا في تراث الإسلام مما يتصل بهذا العلم. إن تراث أسلافنا يجب أن يظل بالنسبة لنا نقطة الانطلاق نحو الارتباط بالإسلام. وإن أسْلَمتنا للعلم ستكون ضحلة جداً إذا لم نأخذ تراثنا في الحسبان ولم ننتفع بنظرات أسلافنا الثاقبة. ولكن مساهمة التراث في تخصص ما ليست ميسرة للباحث الحديث ليصل إليها ويقرأها ويفهمها؛ بل إن الباحث الحديث ليس مؤهلاً حتى للبحث في التراث عن مساهمات الإسلام في تخصصه. والسبب هو أن تصنيفات العلم الحديث لا توجد، ولا حتى أسماؤها، في التراث على هذا النحو. كذلك، فإن التراث قد يحتوي على معلومات قيمة لا يمكن تصنيفها طبقاً لأي تصنيف حديث ولا ربطها به. وإن العالم المسلم الذي تدرّب في الغرب كثيراً ما ينهزم أمام استغلاق التراث الأمر الذي يدفعه بقوة إلى الإعراض واليأس والحكم بأن ليس في التراث شيء حول موضوع البحث، مع أن الحقيقة أنه هو الذي لا خبرة له بتصنيفات التراث التي تندرج تحتها مثل تلك المادة الملائمة لموضوعه. وفوق هذا، فإن العالم المسلم الذي تدرّب في الغرب لا يمتلك الأوقات ولا الخبرة المطلوبة للقيام باستطلاع ناجح للمؤلفات الضخمة والكثيرة التي تضم تراث العلم الإسلامي.

من ناحية أخرى فإن أساتذة التراث الإسلامي التقليديين ـ على الرغم من خبرتهم به ـ لا يمكنهم أن يكتشفوا ولا أن يقوّموا جوانب الملاءمة بين هذا التراث والعلوم الحديثة نظراً لجهلهم بتلك العلوم، وعدم درايتهم بموضوعاتها ومسائلها وقضاياها. ومن هنا يتوجب أن نعرفهم بما نحتاج ثم نتركهم ينطلقون إلى التراث في حرية ليستخرجوا منه ما هو مناسب. ولهذا كان ما تؤدي إليه الخطوتان الأولى والثانية يخدم هذه الغاية من خلال تعريف الخبراء بالعلوم الحديثة وإمدادهم على هذا النحو بمعايير التلاءم التي يستطيعون استخدامها في بحوثهم.

تتضمن هذه الخطوة إعداد عدة مجلدات من الموضوعات المختارة من التراث تضم ما له صلة بالعلوم الحديثة على أن تكون مرتبة طبقاً لمنهج تصنيف كل علم. هذه المختارات ستضع أمام العالم المسلم الحديث طريق ممهدة إلى التراث في مجال تخصصه، إذ ستقدم له ـ في منهج موضوعي مألوف لديه ـ أفضل ما ساهم به التراث في مجموعة القضايا التي تشكل الموضوعات الرئيسية لمجال دراسته. وما دام المتخصص المسلم الحديث لا يمتلك من الوقت ولا الخبرة للوصول بنفسه إلى التراث (بل إنه في معظم الأحوال لا يعرف حتى لغة التراث) فليس من الممكن له، بدون هذه المختارات، أن يصبح على إلف بالتراث، فما بالك بالتمكن منه؟!.

الخطوة الرابعة: التمكن من التراث: التحليل:

لكي نقرب منجزات التراث الإسلامي من فهم العالم المسلم الذي تربى في الغرب، فمن الضروري ألا نكتفي بأن نقدم له

صفحات من التراث على شكل مختارات تتضمن مادة علمية تتصل بموضوع معين. لقد قام الأسلاف بواجبهم في ربط المشاكل التي واجهتهم بالنظرة الإسلامية. وقد فعلوا ذلك تحت تأثير شتى العوامل والقوى التي دفعتهم إلى التيقظ. وعلينا ـ كي نفهم بلورتهم للرؤية الإسلامية ـ أن نحلل كتاباتهم في ضوء الخلفية التاريخية وأن نتبين ونبرز علاقات المشاكل القائمة في عصرهم بالقطاعات الأخرى من الحياة والفكر. هذا التحليل التاريخي لمساهمات التراث سيكشف ولا ريب مناطق عديدة من الرؤية الإسلامية ذاتها. وهذا يقودنا إلى فهم أفضل لهذه الرؤية نتعلم منه كيف فهمها الأسلاف وكيف حرّكتهم، وكيف ترجموها إلى مناهج تطبيقية في الأفعال والسلوك، وكيف أعانتهم على حل ما واجهوه من مشاكل وصعوبات خاصة.

مثل هذه الأنماط من التحليل لمساهمات التراث الإسلامي لا يمكن أن تتم اعتباطاً. بل يجب أن يقام نظام متدرّج من الأولويات وأن يُـدعى العلماء الإسلاميـون لتنفيذه بنـظام. فبالإضافة إلى المبادىء الأساسية والمشاكل الكبرى والقضايا المستمرة، فإن المسائل التي يَظهر أنّ لها علاقة بمشاكلنا الحاضرة ينبغي أن تكون موضوع الاستراتيجية الإسلامية في التعليم والبحث.

الخطوة الخامسة: إقامة العلاقة الخاصة بين الإسلام والعلوم الحديثة:

تنتهي الخطوات الأربع السابقة إلى عرض المشكلة أمام المفكر المسلم. وهي مجتمعةً تلخص له تطورات هذا العلم التي فاتت

المسلمين أثناء غفلتهم. وبالمثل، فإنها يجب أن تُعْلِمه، في أوضح وأوثق صورة ممكنة، بمساهمات التراث الإسلامي في المجالات التي تتناولها هذه العلوم وبالأهداف العامة لكل علم. هذه المواد العلمية يجب أن توضع في صورة أكثر تحدداً وذلك بتحويلها إلى مبادىء على نحو تلتقي فيه مع العلم الحديث على مستوى العموميات أو التنظير أو المراجع أو التطبيق. وفي هذا الصدد يجب الربط بين التراث الإسلامي وطبيعة العلم الحديث ومناهجه الأساسية ومبادئه ومشاكله وأغراضه وآماله وإنجازاته ونواحي النقص فيه؛ كما تستخلص من المساهمة العامة العلاقة الخاصة بين التراث وكل واحدة من تلك النواحي. هنالك ثلاثة أسئلة رئيسية يجب أن تطرح وأن نجد لها جواباً. **الأول**، ما هي مساهمة التراث الإسلامي، ابتداءً من القرآن وانتهاءً بالمجددين المحدثين، في جملة القضايا التي يثيرها هذا العلم؟ **الثاني**، كيف تتطابق أو تتعارض مساهمات التراث الإسلامي مع ما أنجزه هذا العلم؟ وأين وصل التراث إلى مستوى رؤية هذا العلم وآفاقه وأين قصّر عنها أو تخطاها؟ **الثالث**، بعد معرفة المجالات والقضايا التي كانت مساهمة التراث الإسلامي فيها قليلة أو معدومة، في أي اتجاه يحسن أن تُبذَل جهودُ المسلمين مستقبلاً لكي تَسُدَّ هذا النقص وتعيد صياغة المشكلة وتُوَسِّعَ مدى الرؤية؟

الخطوة السادسة: التقييم النقدي للعلم الحديث: بيان واقع العلم:

بعد عرض كلٍّ من العلم الحديث والتراث الإسلامي، و نتعرف على مناهجهما ومبادئهما ومشاكلهما وإنجازاتهما ومسحها

وتحليلها، وبعد توضيح العلاقة الخاصة بين الإسلام والعلم وإقامة أسسها، يجب أن نُخضع هذا العلم لتحليل نقدي من وجهة النظر الإسلامية. وهذه خطوة رئيسية من عملية «أسلمة المعرفة». وواضح أن الخطوات الخمس السابقة تقود إليها وتمهد لها. وفي مجال التطور التاريخي للعلم يجب أن نميز ونظهر الملابسات التي جعلت هذا العلم يجيء على صورته هذه. يجب أن نحلل ونختبر منهجيته ـ وأعني بها ما يتضمن تحديد مادته الأولية ومسائله، تصنيفه وتبويبه، نظريته ومبادئه التي على أساسها يحل مشاكله ـ وذلك من أجل الاختصار والكفاية والمعقولية والانسجام مع «الوحدة» ذات الأبعاد الخمسة التي يقررها الإسلام. كما يجب أن تحلل مشاكل هذا العلم الغالبة وقضاياه المستمرة لنعرف ما وراءها من فروض وما لها من أهمية وعلاقة بالرؤية الأساسية له. ومن الواجب أن يكون الغرض النهائي للعلم ذا ارتباط محدد بمنهجيته وبأهدافه القريبة أيضاً. هل حقق رؤية مؤسِّسِه؟ وهل أدى دوره في عملية البحث عن المعرفة التي هي مطلب الإنسان؟ وهل حقق ما توقعه الناس منه كجزء من المطلب الإنساني العام؟ وهل حدَّد من أجل الفهم والتاريخ السنن الإلهية في الخلق، التي قصد من ورائه تحديدها؟ وبالإجابة على هذه الأسئلة نصل إلى تقرير واضح وأصيل عن حالة هذا العلم، كما تتضح الجوانب التي تستلزم هذا الضرب أو ذاك من التصحيح الإسلامي أو التعديل أو الإضافة أو الحذف.

الخطوة السابعة: التقييم النقدي للتراث الإسلامي: بيان واقع التراث:

نعني بالتراث القرآن الكريم الذي هو كلام الله سبحانه

وتعالى، وسنة النبي محمد ﷺ. هذان ليسا موضوعاً للنقد أو التقويم. فالطبيعة الإلهية للقرآن والمعيارية للسنة فوق كل تساؤل. أما فهم المسلم لهذين المصدرين فليس كذلك. بل إنه يخضع للتعديل والنقد في ضوء المبادىء التي يقدمها هذان المصدران الوحيان. ومثله في هذا كل الأشياء الأخرى في التراث والتي قد تكون مستقاة من أي من المصدرين عن طريق الجهد العقلي البشري. إن هذا العنصر البشري بحاجة إلى إعادة النظر لأنه لا يقوم بالدور الحيوي المحرِّك في حياة المسلمين كما فعل من قبل وكما يفترض أن يفعل دائماً. إنه ملاءمة فهمنا البشري للوحي لمختلف المشاكل الحاضرة يجب أن تخضع للنقد المستمد من ثلاثة مصادر: **الأول**، الرؤية الإسلامية كما تستخلص بوضوح من مصادر الوحي مباشرة ومن تحقيقها تاريخياً على يد النبي ﷺ وصحابته والتابعين رضي الله عنهم، **ثانياً**، ما تحتاجه «الأمة» في الوقت الحاضر في كل مكان من العالم. **ثالثاً**، مجموع المعارف الحديثة التي يمثلها هذا الفرع من العلم. فإذا وجد أن التراث به نقص أو خطأ وجب تصحيحه بالجهود المعاصرة. وإن كان لا بأس به، فيلزم، من أجل المستقبل، العمل على مزيد من تطويره وبلورته من جديد وبشكل مبدع. وعلى كل حال، فليس هناك موقف إسلامي حي اليوم ليست له علاقة بتراث الإسلام. ولإنجاز هذا على هذا النحو يجب أن يقوم العمل على أساس دراية كاملة بالتراث من حيث نواحي القوة والضعف فيه. بل إن الموقف الإسلامي في الحاضر وفي المستقبل يجب أن يأخذ صورة مصاحبة للتراث دائماً وليست انطلاقاً جذرياً منه.

إن مهمة تقييم ما ساهم به التراث الإسلامي في كل ميدان

من ميادين النشاط الإنساني تقع، لهذا، على عاتق الخبراء في هذا النشاط. إنهم ميزان لما يحتاجه المسلمون في هذا الميدان، كما أنهم حُذّاق العلم الحديث الذي يدرس هذا النشاط. ومن المؤكد أنهم سيكونون في حاجة إلى مساعدة خبراء التراث كي نضمن فهمهم له على أعلى مستوى من الصحة والكفاءة.

الخطوة الثامنة: تحديد أهم مشاكل «الأمة»:

تواجه الأمة اليوم، وقد انتبهت من رقادها، مشاكل هائلة على كل الجبهات. إن مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ـ وهي مشاكل مستعصية بكل المقاييس ـ ليست سوى الجوانب اليسيرة الظاهرة من مرضها الكامن في ناحيتي الفكر والأخلاق. وإن المشكلة برمتها، أو مجموعة الأسباب والمظاهر المتفاعلة مع سواها من الظواهر والآثار المتصلة بمشاكل الأمة، لتتطلب مسحاً علمياً وتحليلاً نقدياً. إن حكمة التخصص العلمي يجب أن توجه لتُسهم في حل مشاكل الأمة، أعني أن تمكن المسلمين من أن يفهموا هذه المشاكل فهماً صحيحاً وأن يحددوا بدقة تأثيرها على حياة الأمة وعلى قضية الإسلام في العالم. فليس لمسلم من أهل التخصص أن يتابع تخصصه العلمي لمجرد الترف العلمي الخالص المعتزل في برج عاجي كما لو كان لا علاقة له بواقع الأمة وآمالها وطموحاتها. وعلينا أن نطبق على مجالات تخصصاتنا ذلك الدعاء الذي نسأل الله فيه أن يمنحنا «علماً نافعاً»، وذلك بأن نوجه أنظارنا في قوة إلى مشاكلنا النائمة. وفوق هذا كله تأتي مشكلة التخصصات العلمية والمؤسسات التعليمية في إصرارها على البعد عن الإسلام في مقابل محاولاتنا لإرجاعها إلى الصبغة الإسلامية. وفي الوقت نفسه فإن اهتماماتنا يجب أن تكرس

للمشاكل الرئيسية التي تؤثر على مشاكل الأمة في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية والأخلاقية والروحية، وفي كل قطاع من قطاعات الجهد الإنساني.

الخطوة التاسعة: تحديد مشاكل الإنسانية:

إن حمل المسؤولية تجاه مصلحة الجنس البشري كله، وليس مصلحة الأمة الإسلامية وحدها، لهو جزء جوهري من الرؤية الإسلامية. إن «أُمّة» الله سبحانه وتعالى تشمل الكون كله؛ ويجب أن تتطابق مسؤولية الإنسان معها. حقاً، إن «الأمة الإسلامية» تعتبر من بعض النواحي متخلفة وغير متقدمة إذا قيست بسواها من الأمم. لكن في مجال امتلاك الحق والبيان الأيديولوجي الذي يعبر عنه، وهو أفضل ما يؤدي إلى الازدهار الديني والخلقي والمادي في الوقت نفسه، فإن هذه الأمة لا يسبقها أحد. وبسبب الإسلام تمتلك «الأمة» وحدها الرؤية التي هي شرط ضروري كي تسعد البشرية ويجيء تاريخها على النحو الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى.

من هنا كان المفكر المسلم مطالباً بالتصدي للمشاكل التي تواجه العالم اليوم والعمل على حلها طبقاً للإسلام. إن الأمة التي تحمل الرؤية الإسلامية هي المتحدث الحق والوحيد اليوم في الأرض باسم البشرية التي ضاعت قضيتها بين الاستعماريين والثوريين وهي تسعى للتخلص من نيرهم. إن التعصب العنصري في كل مكان يدمر العلاقات التي تربط البشر بعضهم ببعض. أما البقية الباقية من الخير فقد تكفلت بالقضاء عليها الخمور والمخدرات والفوضى في العلاقات الجنسية والتدهور في

أخلاقيات الأسرة والأمية والخمول وحكم العسكر وتكديس الأسلحة والعدوان الظالم على الطبيعة وتهديد التوازن البيئي على الأرض، كل ذلك وغيره دون ما رادع فعال من أي مصدر. ومن المؤكد أن هذه المشاكل تمثل جانباً آخر في أمَسِّ الحاجة إلى الإسلام فكراً وتخطيطاً وتنفيذاً، إذ فيه الأساس لسعادة «الأمة» وسعادة البشرية أيضاً. وإن حل هذه المشاكل والسير بالبشرية إلى السعادة والازدهار في إطار من العدل والكرامة لهو جزء لا يتجزأ من أهداف الإسلام.

الخطوة العاشرة: التحليلات والتركيبات المبدعة:

بعد فهم العلوم الحديثة والتمكن منها وفهم التراث الإسلامي وهضمه، وتقويم جوانب القوة والضعف فيهما وتحديد ملاءمة الإسلام لميادين البحث المحددة في العلوم؛ وبعد التشخيص والفهم لما يواجه الأمة من مشاكل في مسيرتها التاريخية وهي في مقام الخلافة عن الله في الأرض، فضلاً عن فهم مشكلات البشرية من وجهة النظر الإسلامية التي تفرض على المسلمين أن يكونوا «شهداء على الناس» عبر التاريخ الإنساني، بعد هذا كله يكون المجال الآن مهيأ أمام العقل المسلم ليتحرك حركته القوية الخلاقة. يجب أن نمهد طريقاً جديدة أمام الإسلام في هذا القرن الخامس عشر إذا كنا نريد له أن يستأنف قيادته للعالم، وأن يتابع دوره الإصلاحي والحضاري في حياة البشرية.

إن الواجب أن تقام تركيبة مبدعة بين التراث الإسلامي والعلوم الحديثة تنهض بتغطية الفجوة التي امتدت عبر قرون التخلف. ولا بد لتراث الإسلام في التعليم أن يساير المنجزات

الحديثة على الدوام ويدفع بالمعارف والعلوم إلى حدود وآفاق أبعد مما تصورته العلوم الحديثة. تلك التركيبة يجب أن تحافظ على صلتها الوثيقة بواقع الأمة الإسلامية وذلك بالاشتغال بمشاكلها التي تم التعرف عليها وتحديدها. إن عليها أن تهيىء الحلول الفعالة لمشكلات العالم كله بالإضافة إلى الاهتمام بالقضايا التي تتولد دائماً من خلال الآمال الإسلامية، ما هي بالتحديد محتويات تلك الآمال في كل قطاع من حياة الإنسان؟ وكيف تضع هذه التركيبة «الأمة» والبشرية جمعاء على طريق التقدم نحو تحقيق هذه الآمال؟.

فإذا عرفنا بالتحديد ملاءمة التراث لموضوع أو مشكلة، وعرفنا الطبيعة الخاصة للقضية التي تشغلنا، فأي الخيارات هو الصحيح حتى يَسير المسلم فيه؟ ولا شك أن عدداً كبيراً من الخيارات يكون مطروحاً في كل حالة؛ فأيها أقرب إلى المثال الإسلامي وأيها أبعد عنه؟ أيها أكثر أو أقل فعالية؟ أيها يدفع بالحركة الإسلامية نحو الأهداف العليا للإسلام أو يعوقها؟ أي هذه الخيارات ممكن أو ضروري أو لا مفر منه أو مرغوب فيه أو صحيح؟ ما هي المعايير التي يمكن أن نؤكد بها أن الإسلام (في شريعته وأخلاقه وثقافته وروحه) يلائم تماماً المشكلة التي نعالجها؟ وما هي الطرق التي يمكن أن نقيس بها مدى كفاءة الحلول المقترحة؟ وما هي الأسس التي يمكن بواسطتها أن نبرز مساهمة «التركيبة» المبدعة وأن نقيسها ونقوّمها؛ أو أن ندخل عليها التعديلات والتصحيحات الملائمة ونوجهها ونقوّمها؟.

الخطوة الحادية عشرة: إعادة صياغة العلوم في إطار الإسلام: الكتب الدراسية للجامعة:

من الطبيعي أن العقول الملتزمة بالإسلام لن تصل كلها إلى نفس الحلول أو تختار نفس الخيارات وهي تحدد ملاءمة الإسلام لوجود «الأمة» حاضراً ومستقبلاً. مثل هذا الاختلاف لن يكون مقبولاً فقط، بل سيكون أمراً مطلوباً بقوة. إننا بحاجة إلى عشرات التحليلات النقدية المتنوعة التي يقوم بها الملتزمون بالإسلام من أهل التخصصات الحديثة، وذلك كي نثري وعي «الأمة» بأمانيها وأهدافها. فالحق أن أمتنا لا يمكن أن يقال: إنها استردت فاعليتها وحيويتها التي كانت لها في القرون الهجرية الأولى ما لم يصبح الإسلام نفسه بالنسبة للمسلمين مِرْجَلاً دائم المَوَرَانِ والتدفق بالجديد من الأفكار التي تجسد سنن الله في الكون، ونبعاً ثراً يفيض بالخيارات الأخلاقية الخلاقة التي تتجسد فيها القيم والأوامر الإلهية وتصبح تاريخاً واقعاً.

إن الكتاب الجامعي أو المدرسي المنشود في تخصص علمي ما يمكن إعداده بفضل الخصب الذي تتميز به مثل هذه النظرات الثاقبة والمبصرة في مفهوم الإسلام، والخيارات المبدعة لتحقيق هذا المفهوم. إننا بحاجة إلى الاستكثار من المقالات والبحوث التي تمثل النظرات الفردية المتعمقة في موضوع أو فرع أو مشكلة ما، وذلك كي تكون بمثابة «رؤية خلفية» أو «ميدان مواءمة» ومن ذلك تنبع الرؤية الإسلامية في أي مجال علمي.

إن أسلمة علم ما لا تتم بتأليف كتاب واحد فيه، حتى ولو تحققت فيه كافة المواصفات المطلوبة. لا بد من وجود عشرات الكتب الدراسية من أجل تنمية المقدرة الذهنية للعقول المسلمة. أضف إلى هذا، أننا بحاجة ماسة إلى العديد من الكتب التي

تغطي الحاجات التربوية للمستويات الجامعية المختلفة (بدءاً من الطلاب المستجدين إلى مرحلة التخرج)، كما أن ثمة حاجة إلى مزيد من الكتب التي تشبع حاجات المسلمين وهي غير محدودة، والتي تبرز وتبلور التصور الإسلامي وهو غير محدود كذلك. لكن نظام الأولويات يفرض علينا أن نعبِّىءَ جهودنا في البداية لإعداد كتب دراسية نمطية لكل من التخصصات العلمية بحيث تبرز فيها بشكل حاسم علاقة التصور الإسلامي بهذا التخصص، وتصبح بمثابة الدليل الذي تسير على نهجه العقول الإسلامية في المستقبل. ولست في حاجة إلى القول بأن أية محاولة لتعجل إنتاج الكتاب الدراسي الجامعي على حساب الالتزام بالخطوات المشار إليها سابقاً لا يمكن أن تنتج إلا شيئاً هزيلاً.

لقد أوصانا رسول الله ﷺ إذا عملنا عملاً أن نتقنه. والحق أن الكتاب الدراسي الجامعي هو الهدف النهائي لكل الإجراءات الطويلة التي تؤدي إلى عملية «أسلمة» العلوم. إنه العمل الذي يتوج البحوث الطويلة في الخطوات السابقة.

الخطوة الثانية عشرة: نشر المعرفة «المؤسلَمة»:

لو تم إنتاج كل هذه الأعمال بأيدي الأساتذة المسلمين ثم بقيت مخزونة في حدود ملكيتهم الخاصة لكان ذلك عبثاً مهما كانت قيمة العمل عظيمة في ذاته. كما أنه سيكون أمراً مؤسفاً للغاية لو بقيت تلك الذخائر محصورة في نطاق دائرة محدودة من أصدقاء المؤلفين ومعارفهم، أو قصر الانتفاع بها على المؤسسات التربوية في دولهم أو الدول المجاورة وحدها. . إن كل عمل يتم لوجه الله تعالى يصبح ملكاً للأمة الإسلامية كلها، ولن يبارك الله

فيه ويتقبلهُ ما لم ييسر طريق الانتفاع به لأكبر عدد من خلق الله. ومع أن من حق المسلم، بل من الواجب، أن يكافأ مادياً على جهوده الفكرية، إلا أن الأعمال الفكرية في الإسلام ينبغي أن تشاع ولا يحتكرها صاحبها سعياً وراء الربح المادي. إن القيام بالعمل لوجه الله تعالى يفرض على صاحبه أن يجعله متاحاً لكل من يرغب في أن يفيد منه وينقل ما فيه من علم بأي وسيلة كانت.

أمر آخر؛ إن مثل هذا العمل الفكري الذي يأتي نتيجة للخطوات المذكورة سابقاً إنما قصد به أن يحقق اليقظة والتنور والثراء الفكري لا للمسلمين في العالم وحدهم، بل للناس كافة. فهؤلاء إذن هم القراء أو قل هم «المستهلكون» لهذه السلعة. إن العمل الذي يحمل صفة «إسلامي» وأُنجِز لوجه الله تعالى ويحمل في طياته رؤية الإسلام نفسه، له غاية أسمى من مجرد نقل المعلومات. إن وعي الإنسانية كلها يمكن، أمام انبلاج التصور الإسلامي الحق، أن يفقد توازنه القديم ويموج بالحركة مولداً من الطاقات الجديدة ما لم تعرفه البشرية من قبل. فتحت تأثير هذا التصور يتوقع لهذا الموضوع العلمي أن يصبح وسيلة للإرادة الإلهية وأداة دفعٍ إلى الأمام وأن ينجز باسم الله ما لم يحلم بإنجازه من قبل.

ومن هنا كان من أهداف خطة العمل أن نَضَع كل عمل ينجز طبقاً للخطوات السابقة تحت تصرف كل باحث جامعي مسلم وبدون مقابل مادي. إن كل مقالة أو بحث أو نشرة أو منتخبات أو كتاب يقدم إلى مثل هذا الباحث فإنما هو بمثابة دعوة شخصية

تدعوه إلى الانضمام إلى هذا العمل وإلى أن يصبح «منتجاً» لأعمال أفضل نتيجة لتمكنه من المؤلفات المتاحة. وبالمثل، فإن وضع تلك المؤلفات بين أيدي المفكرين المسلمين لهو أعظم مكافأة يمكن الحصول عليها في هذه الدنيا. إن هذا لا يعني استبعاد المكافأة المادية للمؤلف، وإنما نعني أن العالم الملتزم بالتصور الإسلامي، والذي ابتغى بعمله وجه الله تعالى، لا يرى أن ثمة مكافأة أعظم من أن يتمكن من غرس هذا التصور في عقل إنسان آخر وقلبه، ولا يرى واجباً أكبر من أن يربي على هذا التصور وعي المسلمين في العالم.

أمر ثالث، إن إنتاج هذه الخطة يجب أن يهدى رسمياً إلى جامعات العالم الإسلامي ومعاهده مع الطلب إليها أن تنظر في إمكانية تبنّيها كقراءات تتطلبها المقررات المناسبة في منهج الدراسة. ومن الطبيعي أن تُترجم، ولا بُدَّ، إلى لغة التدريس في مختلف أقطار العالم الإسلامي.

(ب) ـ وسائل أخرى مساعدة في «أسلمة العلوم»

١ ـ المؤتمرات والندوات:

يجب أن تعقد سلسلة من المؤتمرات والندوات يشترك فيها المتخصصون من الحقول المناسبة التي تسهم في حل أي مشكلة تتعدى نطاق التخصص الواحد. إن مشاكل الأمة غالباً من هذا النوع الذي يتطلب مشاركة العديد من التخصصات في إلقاء الضوء عليها في وقت واحد. كذلك يجب أن تعقد سلسلة من المؤتمرات للعلماء المتخصصين في القطاعات العديدة داخل

التخصص الواحد وذلك كي يتعاونوا فيما بينهم على أداء مهماتهم كلٌ في قطاعه.

٢ ـ تدريب الهيئة التدريسية عملياً في الفصول:

من الضروري، بعد إعداد الكتاب المدرسي وما يسبقه من مواد كما ذكرنا في الخطوات الاثنتي عشرة السابقة، أن يدرّب أعضاء الهيئة التدريسية على كيفية استخدامها. فتهيىء للخبراء الذين أعدوا هذه المواد فرصة الالتقاء بالهيئة التدريسية وأن يناقشوا معهم ما لم يسجل في الكتب من الافتراضات الأولية وما لم يبرزوه من آثار النظريات والمبادىء والحلول التي ضمنوها مقالاتهم وكتبهم. كذلك، فإن مثل هذه اللقاءات سوف تستكشف القضايا التعليمية المتعلقة بتقديم المادة العلمية، وفي هذا مساعدة للقائمين بالتدريس على الوصول إلى تحقيق الهدف الأعلى بكفاءة.

(جـ) ـ قواعد أخرى للتنفيذ:

١ ـ ليس من المعقول أن نتوقع في هذه المرحلة من التطور العلمي للمسلمين أن يساهم العلماء المسلمون بأعمالهم دون مقابل. فالواجب أن تحدد لهم مكافآت تقديرية تناسب ما يبذلون من جهود، وذلك بالإضافة إلى رواتبهم المعتادة، وذلك بهدف أن تكون حوافز ومكافآت على ما يقومون به كماً وكيفاً. هذه المكافآت الرمزية يجب أن تحدد على أساس المستوى الأكاديمي كما هو المعمول به في كل بلاد العالم. ونحن نؤمن بأن الأستاذ المسلم أو المواطن أو المقيم تقال

مكافأته عن غير المسلم أو غير المواطن أو غير المقيم. إن هذه التفرقة هي من أهم أسباب «هجرة الأدمغة» وضعف الروح المعنوية عند العلماء المسلمين كما أنها من بواعث ظواهر الشك واللامبالاة والتردي في مهاوى الضياع العلمي عند العلماء في أوطانهم.

٢ - يجب أن تتوفر أعلى درجة ممكنة من العناية، وفي ضوئها يختار أكفاء العلماء لتوكل إليهم مهمة إعداد المواد الدراسية المنشودة. وحيث إنه لا يُوجد ضمان كامل بأن العالم الذي يُعهد إليه بإنجاز عمل معين سيقوم بإنجازه فعلاً، كما لا يوجد ضمان كامل بأن المادة التي عُهد إليه بإنجازها ستجيء على المستوى المطلوب، فمن الواجب أن يعهد إلى أكثر من عالم بإعداد العمل الواحد ذاته. إن العمل المطلوب إذا لم يتم بالدقة المرغوب فيها فستكون العشوائية هي البديل، وذلك ما لا يمكن التسامح فيه. ومن هنا فليكن المبدأ أن يعهد إلى نحو خمسة من العلماء أن يقوموا بهذا العمل. أكثر من هذا، فإن تأليف أكثر من كتاب في موضوع واحد لن يكون أبداً ضرباً من التكرار، وإنما هو دائماً إثراء، وذلك لأن البحث العلمي لا بد له أن يجيء شخصي الطابع ممثلاً لاختلاف المؤلفين في التناول وفي وجهات النظر والأساليب، وذلك حتى في العلوم البحتة، وإن كان العنصر الشخصي فيها أضيق مدى منه في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية.

٣ - حيثما يُرى أن العملَ المطلوب أكبرُ من طاقة الفرد الواحد، فالواجب أن يقسم إلى أجزاء يعهد بكل جزء منها إلى أحد

العلماء. وهذا سيسهل مهمة الإنجاز في المدة الزمنية المحددة.

٤ ـ ونظراً إلى أن هذا العمل عمل رائد ـ بل الأول من نوعه ـ في العالم الإسلامي، وحيث إن فوائده ستعود على كافة البلاد الإسلامية، فلا غرابة أن يطلب من كل بلد إسلامي الإسهام في ميزانيته. إن «أسلمة المعرفة» «فرض عين» على مجموع «الأمة» طالما لم توجد في «الأمة» هيئة مسؤولة قامت به. لذا يجب أن تبذل كل الجهود لتوفير الاعتمادات المالية من العالم الإسلامي: دوله وهيئاته وأفراده الأثرياء.

ملحق ـ ١

تقرير عن ندوة «أسلمة المعرفة» التي عقدت في إسلام أباد. ربيع الأول ١٤٠٢/يناير ١٩٨٢

١ ـ نظرة عامة:

حضر الندوة ٢١ عالماً من خارج باكستان ينتمون إلى ١٠ دول بالإضافة إلى خمسة آخرين كان في التخطيط أن يحضروا لكنهم لم يتمكنوا من ذلك وأرسلوا بحوثهم. وبالإضافة إلى هيئة التدريس في «الجامعة الإسلامية» في باكستان شارك في الندوة ثلاثة عشر عالماً من باكستان. مثل الحاضرون أربعة عشر تخصصاً علمياً. عدد الأبحاث التي قدمت إلى الندوة وقبلت ١٨ بالإضافة إلى خطبة الافتتاح. عقدت الندوة ١٤ جلسة: خصصت منها ستة لخطة العمل ومنهج أسلمة المعرفة، وثمانية للتخصصات العلمية. وفي نهاية هذا الملحق قائمة كاملة بكل هذا.

٢ ـ القضايا البارزة:

أ ـ المشكلة: ركزت الندوة اهتمامها على المشكلة الخاصة بأسلمة المعرفة وحاولت أن تصل إلى تحديد واضح لها. والشكل الواضح للمشكلة يتمثل في ثنائية النظام التعليمي وما ينتج عن ذلك من تمزق في شخصية الشباب المسلم. فعلى حين يكون قلبه، أو ضميره، إسلامياً نتيجة التربية في البيت والبيئة والمدرسة

فليس من الملائم للمسلمين أن يتعلموها دون أن يكونوا على وعي بارتباطها بالأيديولوجية الغربية، وكذلك دون أن يربطوها بأيديولوجية الإسلام. وهذا الربط أمر ممكن بلا ريب. وهو يتطلب أن نصحح نظريات العلم ومناهجه وأهدافه بميزان الإسلام، وأن نُعيد بناء تاريخه ومحتواه بما يتلاءم مع مبادىء الإسلام وقيمه.

إن المشكلة لَتصلُ إلى ما هو أبعد من ذلك وأعمق في هذا المجال. إن فترة الركود الطويلة التي مرت على عقول المسلمين جعلتهم يتعودون على التفكير بمعزل عن الفعل، وعلى العمل بمعزل عن الفكر. وهذا هو السبب في أن المفكرين المسلمين قد بالغوا في شغل أنفسهم بالمعياريات ولم يهتموا اهتماماً يذكر بالحقائق التجريبية المعاصرة. وقد اكتَفَوْا زمناً طويلاً جداً بالتفكير في الظواهر بعد وقوعها بدلاً من توقعها والإعداد لها. كذلك، فإن قادة المسلمين كانوا لزمن طويل لا تشغلهم إلا قليلاً اعتبارات الفكر والتخطيط. وظلت أفعال زعماء المسلمين في الغالب تصرفاً أعمى أو متردداً غير واثق من أهدافه وارتجالياً في حساباته. وعملية زرع العلوم الحديثة في العالم الإسلامي لم تزد هذا الموقف الأخير إلا تفاقماً. فالعلوم الغربية تفترض أن المسيحية كدين أو أخلاق غير ملائم للعلم. وقد أوحوا إلى المسلمين الذين يدرسونها أن العلمانية ضرورية لهذه العلوم وعالمية؛ وأن على المسلمين أيضاً أن يطلبوا هذه العلوم مع عزل عقيدتهم الإسلامية أو تجميدها. وهذا هو السبب في أن الفكر والسلوك الإسلاميين في المجتمع الإسلامي استمرا يتباعدان عن بعضهما. وقد أبدت كل البحوث المقدمة إلى الندوة اهتماماً بهذه المشكلة. وقد كرّس

لها بحثا الدكتورين عبد الحميد أبو سليمان وإسماعيل الفاروقي.

ب ـ المبادىء العامة: خصصت الندوة ثلاثة اجتماعات تقريباً لمناقشة المبادىء العامة للأسلمة. وقد وجد أنها تنبثق من وحدة الحقيقة أو المعرفة التي تفرض التطابق بين العمل والفكر. فحقائق الوحي في الإسلام تقف مع عالَم وحياةٍ يؤكدان أن للإنسان رسالة على الأرض. فالإسلام يؤمن بأن الله قد خلق الحياة لنعيشها كاملة، وخلق الطبيعة لنسيطر عليها وننتفع بها، والغرائز لنُشبعها والقدرات لندركها. لكن لا بد لنا، ونحن نقوم بكل هذا، من التمسك بالأخلاق والفضائل من عدالة ومساواة وعالمية وإحسان وتوازن واعتدال وإيثار وأخوة وأمانة وصدق واستقامة وتعاون. ويؤكد القرآن أن الغنى خير إيجابي، وأن العمل والتمتع ضرب من العبادة. لكن يجب أن ننالها بدون غِشٍّ أو سرقة أو احتكار أو استغلال. على المسلم أن يشعر في كل ما يفعل بأنه مسؤول أمام الله تعالى وأمام الأمة وأمام أسرته وأمام نفسه وأمام كل الأجيال القادمة. إن عليه أن يوجه حياته بين القيود التي وضعها الله تعالى. وعليه ألا يستريح إلا بعد أن يغير نفسه ومن يعول والأمة والبشرية ـ بل الكون كله ـ إلى حال تشابه النموذج الذي أوحاه الله تعالى. هذه المبادىء يعترف الجميع بأنها محور الإسلام وأنها أساس ملاءمته لكل جوانب الحياة والفكر.

جـ ـ خطة العمل: تتكون الخطة التي وضعت تفاصيلها في الندوة من خطوات تستهدف جعل فكر المسلمين منسجماً مع الإسلام. والخطوة الأولى الضرورية هي التمكن من تراث العلم

والتعلم في الإسلام؛ والثانية هي التمكن من تراث العلم المعاصر؛ والثالثة هي التعرف على ما فيهما من قصور بالقياس إلى مثل الإسلام العليا؛ والرابعة والأخيرة هي إعادة بنائهما بحيث يندمجان مع بعضهما في تناغم مع التصور الإسلامي والمثل الإسلامية. هذه المهمة يجب أن يقوم بها العلماء المسلمون فقط وذلك على خطوات قصيرة نسبياً وواقعة في نطاق تخصصاتهم وإمكانياتهم الشخصية، لكن مع التعاون المتبادل بين التخصصات والجامعات. أما تفاصيل مختلف الخطوات فيمكن الاطلاع عليها في بحث الدكتور الفاروقي. وقد تضمن هذا البحث أيضاً تفاصيل ميزانية سنوية لإنجاز هذا المشروع خلال الخمس سنوات القادمة.

٣ ـ التقويم:

لقد حققت هذه الندوة حول «أسلمة المعرفة» عدداً من النتائج القيمة:

أولاً : لقد جمعت بين العديد من العلماء المسلمين من مختلف أنحاء العالم ليتبادلوا الرأي مع زملائهم الباكستانيين. كثيرون من العلماء الذين حضروا كانوا من المبرزين جداً في مجالات تخصصهم، وهم من بين قمم التخصص في العالم اليوم في عدد من التخصصات العلمية فضلاً عن العلوم الإسلامية. وقد هيأت لهم الندوة الفرصة ليتلاقوا وليتناقشوا معاً في تخصصاتهم. كما هيأت للجامعة الإسلامية ذخيرة من أعظم المواهب الإسلامية.

ثانياً : كانت حصيلة الندوة ١٨ بحثاً حول «أسلمة» عدد من العلوم قدّمها كبار العلماء في مجالاتها. ففي مجال الاقتصاد ـ مثلاً ـ قدمت إلى الندوة بحوث، وحضرها أربعة من كبار علماء الاقتصاد الإسلامي في العالم. وستكون تلك البحوث بمثابة مراجع قيمة للباحثين في تلك المجالات.

ثالثاً : فإذا جئنا إلى الموضوع الذي يعتبر لب الندوة وهدفها، وهو «أسلمة المعرفة»، فقد انتهت إلى تحديدٍ لمعنى «الأسلمة» حظي بالموافقة من الجميع، وتحديدٍ للأسس المنهجية وللأهداف الضرورية لأسلمة العلوم كمطلب أوليّ لأسلمة التعليم.

رابعاً : درست الندوة خطة عمل تطبيقية تستهدف إنجاز عملية الأسلمة في كل من فروع المعرفة ووافقت عليها. وقد قسمت عملية الأسلمة ـ قصداً إلى التيسير وسرعة الإنجاز ـ إلى ثمان خطوات تؤدي إلى تتويجها بإنجاز الكتب الدراسية الجامعية. وما لم يمكن لأستاذ واحد أن يتمه، يمكن أن يتم على أيدي مجموعة يركز كل واحد من أعضائها على جزء من البحث. تستهدف الخطة إخراج العلوم في صورة تتوافق مع مبادىء الإسلام وقيمه، وذلك من خلال تجزئتها إلى أنواع ومبادىء، مسح عام وقرائم مراجع، ومختارات للقراءة وتحليلات نقدية لمشتملات العلم ثم عمليات بناء وتركيب إبداعي.

خامساً : قررت الندوة أن تتم عملية أسلمة المعرفة من خلال مشروع تعاوني رائد بين الجامعة الإسلامية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي. ومن أجل هذه الغاية وضعت خطة للتعاون بين المعهدين حددت وفصلت فيها مسؤوليات كل منهما. فعلى الجامعة الإسلامية أن تشكل لجنة تقدّم النصح بشأن التفاصيل والمواد اللازمة للتنفيذ وتكون حلقة وصل مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، كما ستكون مسؤولة عن الخدمات والتمويل بالنسبة للأساتذة العاملين في باكستان، باكستانيين أو غير باكستانيين، في أي مشروع للبحث يشرف عليه المعهدان: تتولى الجامعة الإسلامية مهمات الطبع والنشر والتوزيع على مستوى العالم لكل ما ينجزه هذا المشروع التعاوني، وذلك طبقاً لقائمة تضم ١٠,٠٠٠ اسم يقوم بإعدادها المعهد العالمي للفكر الإسلامي. تستضيف الجامعة حلقات بحث المتخصصين في أي تخصص إذا ظهرت حاجة لعقد أي منها، كما تضع كلياتها وطلابها والوسائل المساعدة فيها تحت تصرف أي دورة تدريبية أو تقويمية تستلزمها عملية إنجاز مشروع الأسلمة.

من ناحية أخرى، فإن المعهد العالمي للفكر الإسلامي يتحمل مسؤولية الخدمات والتمويل لكل العلماء العاملين خارج باكستان في أي قطاع من أسلمة العلوم يعهد إليهم به، كما يحمل مسؤولية أكاديمية (تصورية) تجاه كل العلماء والمؤلفات المتعلقة

بالأسلمة. ومن أجل هذه الغاية، فقد يشكل لجاناً استشارية من المتخصصين في مختلف العلوم ويعين مراسلين في مختلف بلدان العالم الإسلامي، ويقيم اتصالات وعلاقات مع الهيئات الحكومية والمؤسسات التعليمية، ومع الأكاديميين والمفكرين المهتمين بأسلمة المعرفة. كذلك سيعمل المعهد على مساعدة العلماء المسلمين المشتغلين بالأسلمة ليعملوا بكل الوسائل الممكنة لتيسير مهمة إنجاز ما وكل إليهم، بما في ذلك الخدمات البيبليوجرافية وتوفير الحلقات الدراسية ولقاءات المتخصصين وزيادات للمراكز التعليمية والاستشارات التصورية.

سادساً : إحساساً بالحاجة الماسة لدى الجامعات الإسلامية في العالم إلى إيجاد مقررات حول الحضارة الإسلامية ضمن مناهج الدراسات الأدبية والإنسانية، وبالغياب التام تقريباً للكتب الدراسية الموثوق بها في هذا المجال الدراسي، فقد قررت الندوة بالإجماع على إعطاء الأولوية العليا لإنجاز تلك الكتب المطلوبة. إن هذه الحاجة سائدة وملحة من الجامعات العلمانية والحديثة حيث يتعرض الشباب المسلم لهجمات متصلة من الأيديولوجيات الأجنبية، وحيث لا تدرس الثقافة والحضارة الإسلاميتين إلا لمن يتخصصون فيها. أما الطلاب الآخرون، وهم الأغلبية، فإنهم يبقون على ما عرفوه من بسائط عن

الإسلام عن طريق البيت أو مراحل التعليم قبل الجامعة، وواضح أن ما لديهم لا يكفي لمواجهة الأيديولوجيات الأجنبية ولتحصين المسلم ضد الآثار التغريبية التي تتركها تلك الأيديولوجيات. لقد وافقت الندوة على أن تقوم الجامعة الإسلامية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي فوراً بتعبئة الأساتذة المسلمين ذوي الكفاءة وتكليفهم بإعداد مجموعة مختارات للقراءة حول الحضارة الإسلامية وذلك لسد هذه الثغرة، وعلى أن يتخذا الإجراءات الضرورية ليقوم الأساتذة المسلمون بإعداد دراسات إبداعية تفسر الحضارة الإسلامية وتؤرخ لها كي تستخدم ككتب دراسية جامعية في المستقبل.

المشاركون في ندوة «إسلام أباد»

حول موضوع أسلمة المعرفة

الاسم	البلد	الجامعة أو المعهد	التخصص	الحضور
١ ـ س.م. عبدالله	باكستان	دائرة المعارف الإسلامية	دراسات إسلامية وتربية	لم يحضر
٢ ـ عمر فاروق عبدالله	أمريكا	ميشيجان	القانون والفقه	حضر
٣ ـ أحمد كمال أبو المجد	مصر	حكومة الكويت	القانون الدولي	لم يحضر
٤ ـ عبد الحميد أبو سليمان	السعودية	الرياض	علوم سياسية. علاقات	حضر
			دولية. دراسات إسلامية	
٥ ـ محمود أبو السعود	مصر/أمريكا	ولاية ميسوري الغربية	الاقتصاد	حضر
٦ ـ م. أفضل	باكستان	حكومة باكستان	إدارة عامة	لم يحضر
٧ ـ أكبر أحمد	باكستان	حكومة باكستان	علم الإنسان	لم يحضر
٨ ـ أنيس أحمد	باكستان	الجامعة الإسلامية	تاريخ. دراسات	
			إسلامية اقتصاد	حضر
٩ ـ خورشيد أحمد	باكستان	حكومة باكستان	اقتصاد	حضر
١٠ ـ محمد أجمل	باكستان	حكومة باكستان	تربية. علم نفس	حضر
١١ ـ طه جابر العلواني	العراق/السعودية	الإمام محمد بن سعود	قانون فقه. دراسات	حضر
		الخدمات المصرفية الإسلامية	إسلامية	
		المسلم المعاصر	قانون. اقتصاد	لم يحضر
١٢ ـ جمال الدين عطية	مصر			
١٣ ـ سليم العوا	سوريا/السعودية	الرياض	علوم سياسية. قانون	لم يحضر
١٤ ـ ن.إ. بالوش	باكستان	الجامعة الإسلامية	تربية	حضر
١٥ ـ زكريا بشير	السودان	الخرطوم	فلسفة. دراسات إسلامية	حضر
١٦ ـ إلياس بايونس	باكستان/أمريكا	الملك عبدالعزيز/ State Univ. of N.Y.	علم الاجتماع	لم يحضر
١٧ ـ أ.هـ. داني	باكستان	قائد أعظم	تاريخ. آثار.	حضر
			دراسات إسلامية	
١٨ ـ إسحاق أحمد فرحان	الأردن	اليرموك	تربية	لم يحضر
١٩ ـ أ.ز.ع فاروقي	باكستان	حكومة باكستان	تربية	حضر
٢٠ ـ إسماعيل ر. الفاروقي	فلسطين/أمريكا	تمبل	فلسفة. دراسات إسلامية	حضر
٢١ ـ ج.س. تشانغرو	باكستان	الجامعة الوطنية للهجرة	إدارة عامة	حضر
٢٢ ـ م. غازي	باكستان	الجامعة الإسلامية	علوم سياسية	حضر
٢٣ ـ محمود غزنوي	باكستان/أمريكا	روزمونت	تاريخ. علوم سياسية	حضر
٢٤ ـ محمد حميد الله	الهند/فرنسا	معهد البحوث	قانون. فقه.	
			دراسات إسلامية	حضر
٢٥ ـ كمال حسن	ماليزيا	الجامعة الوطنية	تاريخ	حضر
٢٦ ـ أنور إبراهيم	ماليزيا	(ابيم)	علوم سياسية	حضر
٢٧ ـ عز الدين إبراهيم	مصر	جامعة العين (الإمارات)	أدب عربي	لم يحضر
٢٨ ـ جعفر شيخ إدريس	السودان	الإمام محمد بن سعود	فلسفة	لم يحضر
٢٩ ـ م.أ. قاضي	باكستان	المجلس الوطني للعلوم ـ الحكومة	علوم طبيعية. كيمياء	حضر
٣٠ ـ محمد إبراهيم كاظم	مصر	قطر	أدب عربي	لم يحضر
٣١ ـ عبد الرءوف خان	باكستان	أكاديمية الشؤون الخارجية	تربية. فلسفة	حضر
٣٢ ـ عبد المجيد م. مكين	سري لانكا/ماليزيا	الملايو	دراسات إسلامية	حضر
٣٣ ـ محمد معروف	سري لانكا/أمريكا	Cheme State	علم الإنسان	حضر
٣٤ ـ زغلول النجار	مصر/السعودية	البترول والمعادن	علوم طبيعية	حضر
٣٥ ـ عبدالله ناصيف	السعودية	الملك عبدالعزيز	علوم طبيعية	حضر
٣٦ ـ يوسف القرضاوي	مصر	قطر	دراسات إسلامية	لم يحضر
٣٧ ـ محمد صقر	الأردن	جامعة الأردن	اقتصاد	لم يحضر
٣٨ ـ نجاة الله صديقي	الهند/السعودية	الملك عبدالعزيز	اقتصاد	حضر
٣٩ ـ م. رضي الدين صديقي	باكستان	قائد أعظم	رياضيات	حضر
٤٠ ـ يوسف طلال	باكستان	حكومة باكستان	دراسات إسلامية. تربية	لم يحضر
٤١ ـ هشام الطالب	العراق/السعودية	الرياض	هندسة كهربائية. علوم طبيعية	حضر
٤٢ ـ أحمد توتونجي	العراق/السعودية	الرياض	هندسة البترول. علوم طبيعية	حضر
٤٣ ـ عبدالله عبدالمحسن التركي	السعودية	الإمام محمد بن سعود	قانون وفقه	لم يحضر
٤٤ ـ أنس الزرقا	سوريا/السعودية	الملك عبد العزيز	اقتصاد	حضر
٤٥ ـ الشيخ مصطفى الزرقا	سوريا	جامعة الأردن	قانون وفقه	لم يحضر
٤٦ ـ عبد الله الزايد	السعودية	الجامعة الإسلامية بالمدينة	دراسات إسلامية	لم يحضر

ملحق ـ ٢
مقرر في الحضارة الإسلامية

■ الحاجة والمسوغات

١ ـ يتعرض الشباب المسلم في كل مكان في العالم للعديد من القوى التي تعمل على تجريده من إسلامه وتمارس عملها من داخل الجامعات والكليات ومن خارجها أيضاً. وتتجه هذه القوى إلى تغريب شبابنا بدعوى التحديث. وهي تعمل على مستوى المعارف التي تنقل من خلال المحاضرات أو تقرأ من الكتب أو من الدوريات أو من وسائل الاعلام العامة.

٢ ـ قد يكون الشباب قد تلقى قدراً من العلم بمبادىء الإسلام في البيت أو في المدرسة الابتدائية أو الثانوية. لكن هذا غير كاف لمواجهة تحدي الأفكار والأيديولوجيات الأجنبية التي يواجهونها وهم كبار.

٣ ـ إن نسبة قليلة جداً من طلاب الجامعات والكليات هم الذين يتخصصون في الدراسات الإسلامية ويتلقون تعليماً كفؤاً في الثقافة والحضارة الإسلاميتين يكفي لمواجهة الأيديولوجيات الأجنبية. أما في الغالبية العظمى من الحالات، فإن الشباب المسلم لا يدرس أي شيء عن

التخصص؟ هل يعتبر تخصصك الآن فناً؟ أم علماً؟ أم ثقافة عامة؟ ما الذي تتوقع من تخصصك أن يسهم به في سعادة البشرية على الأرض، وكيف؟ وهل هو كفء لأداء هذا على وضعه الراهن؟.

[والله تعالى أعلم].

تمت الترجمة - بحمد الله - صباح الجمعة

٢١ محرم ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٨/١٠/١٩٨٣ م

الكويت.

منهج مؤقت لمقرر جامعي في الحضارة الإسلامية لمدة عامين دراسيين

الجزء الأول: المبادىء:

مقدمة: دراسة الحضارة والوعي الحضاري

القسم الأول: الخلفية

الفصل الأول: الشرق الأدنى القديم

الفصل الثاني: اليهودية. الزرادشتية. النصرانية.

الفصل الثالث: مكة

القسم الثاني: الجوهر

الفصل الخامس: الإسلام: الدين

الفصل الخامس: التوحيد: اللُّبّ

القسم الثالث: التوحيد المبدأ الأول

الفصل السادس: التوحيد المبدأ الأول للمعرفة

الفصل السابع: التوحيد المبدأ الأول للطبيعيات

الفصل الثامن: التوحيد المبدأ الأول للنظام السياسي

الفصل التاسع: التوحيد المبدأ الأول للأخلاق

الفصل العاشر: التوحيد المبدأ الأول للنظام الاجتماعي

الفصل الحادي عشر: التوحيد المبدأ الأول للنظام الاقتصادي

الفصل الثاني عشر: التوحيد المبدأ الأول للنظام العالمي
الفصل الثالث عشر: التوحيد المبدأ الأول للجماليات الأدبية
الفصل الرابع عشر: التوحيد المبدأ الأول للفنون السمعية والبصرية

الجزء الثاني: **التاريخ**:

القسم الأول: معالم في الشخصية الإنسانية
الفصل الأول: النبي (ﷺ) وسنته
الفصل الثاني: الصحابة (رضوان الله عليهم)
القسم الثاني: معالم في الحياة السياسية:
الفصل الثالث: الدولة الإسلامية في المدينة
الفصل الرابع: الفتوحات
الفصل الخامس: الدعوة الفردية والجماعية
الفصل السادس: الإدارة والعدالة
القسم الثالث: معالم في الحياة الاجتماعية:
الفصل السابع: الأسرة
الفصل الثامن: النظام التعليمي
الفصل التاسع: الحسبة
القسم الرابع: معالم في المعرفة
الفصل العاشر: علوم القرآن الكريم
الفصل الحادي عشر: علوم السنة الشريفة
الفصل الثاني عشر: علوم الفقه وأصوله
الفصل الثالث عشر: علوم الأخلاق والسياسة

الفصل الرابع عشر: الأدب
الفصل الخامس عشر: علوم الطبيعة

القسم الخامس: معالم في المعيشة

الفصل السادس عشر: المدن
الفصل السابع عشر: الفنون السمعية والبصرية
الفصل الثامن عشر: الأقليات

الجزء الثالث: الحضارات الأخرى:

الفصل الأول: النصرانية الغربية
الفصل الثاني: الغرب الحديث
الفصل الثالث: الاشتراكية. الفاشية. الشيوعية
الفصل الرابع: اليهودية والصهيونية
الفصل الخامس: الهندوكية
الفصل السادس: بوذية «ثيرافاذا»
الفصل السابع: بوذية «ماهايانا»
الفصل الثامن: النِّحَل والحضارة الصينية
الفصل التاسع: النِّحَل والحضارة اليابانية
الفصل العاشر: المجتمعات العربية

الجزء الرابع: أزمة الحضارة:

القسم الأول: العلة

الفصل الأول: انحطاط المسلمين
الفصل الثاني: الاستعمار
الفصل الثالث: البعثات التبشيرية النصرانية والدراسات الاستشراقية

ملحق - ٣

خطة تصورية للمساهمات الممكنة في مجالات العلوم

«الوضع الراهن للعلم»؛ «تصميم المحتويات»؛ «تحليلات نقدية»

أعِدَّ بحثاً موجزاً عن المنهجية القائمة في مجال تخصصك متناولاً النقاط التالية بالمناقشة:

١ - **التاريخ**: كيف انتهى هذا الفرع إلى تَبَنِّي المنهج الذي يتبعه الآن؟ ما المؤثرات التي أثرت فيه وساعدته على الوصول إلى المنهج الحالي أو تبنّيه؟ من هم المفكرون الكبار الذين حددوا الطرق المنهجية المتبعة في تخصصك؟ ماذا قدم كل منهم مما يعتبر ذا أهمية للتخصص؟ ما المؤثرات التصورية أو الظروف التي أدت بأفكارهم إلى أن تصبح جزءاً من المنهج؟ هل هناك ما يمكن أن يستفاد به من تاريخ منهج البحث في تخصصك لرسم مستقبل هذا العلم؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فما هو؟ وكيف؟ ولماذا؟

٢ - **الطريقة**: ما التصنيفات الجوهرية لتخصصك؟ كيف يُحَدِّد هذا التخصص قضاياه الأولية؟ ما المواد التي تبنى منها تلك

القضايا؟ ما الذي يريد التخصص عمله في هذه القضايا؟ كيف؟ ما الذي يريد أن يحققه؟ مم تتكون أهدافه؟ إلى كم مدرسة من مدارس الفكر المنهجي ينقسم تخصصك؟ هل تختلف كل منهما عن الأخرى؟ وما وجوه الشبه بينهما؟

٣ ـ **المضمون والمشاكل**: كيف تسرُد قوائم المحتويات لستة من الكتب الدراسية الأساسية الممثلة لهذا العلم؟ (ونعني بها الكتب الدراسية التي يجب أن يبدأ بدراستها كل متخرج متخصص في هذا المجال) وكيف تفسر تنوعها أو وحدتها وتشابهها؟ ما طبيعة مشاكل هذا العلم؟ أعني مشاكله الدائمة فيما يتصل بالمؤلفين والموضوعات والقضايا الأولية والمجتمعات والقيم؟ أهي مشاكل قابلة للحل؟ وهل هذا هو رأي جميع المتخصصين؟ ما الحد الذي يرى هذا العلم أنه ينتهي عنده؟ وهل ذلك الحد هو حد للمعرفة الإنسانية؟

٤ ـ **علاقة الإسلام بتخصصك**: إذا افترضنا أنك قد فكرت طويلاً في الإسلام وكيف يتلاءم مع مجال تخصصك، ففي أي إطار يمكن أن تضع أو تُصنّف هذه العلاقة؟ وأين يمكن أن نبحث عن هذا التلاءم في غير المصدرين المثاليين: الكتاب والسنة؟ هل علاقة الإسلام بهذا العلم موزعة بالعدل على تاريخه ومناهجه ومحتوياته ومشاكله؟ أم أنها تختلف من جانب إلى آخر؟ ما الأفكار الغالبة على هذا التلاءم بحيث تعتبر شيئاً يتميز به تخصصك؟ هل يمكنك أن تقدم بعض الأمثلة التي تراها نماذج واضحة في مجالي الملاءمة الإسلامية وفرع

التخصص؟ هل يعتبر تخصصك الآن فناً؟ أم علماً؟ أم ثقافة عامة؟ ما الذي تتوقع من تخصصك أن يسهم به في سعادة البشرية على الأرض، وكيف؟ وهل هو كفء لأداء هذا على وضعه الراهن؟.

[والله تعالى أعلم].
تمت الترجمة ـ بحمد الله ـ صباح الجمعة
٢١ محرم ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٨/١٠/١٩٨٣ م
الكويت.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

إن الغاية من «المعهد العالمي للفكر الإسلامي»، الذي أنشىء عام ١٤٠١/١٩٨١، هي خدمة البحث في الدراسات الإسلامية في العالم كله والعمل على ترقيتها. وكذلك حث العلماء الإسلاميين على دراسة مشاكل الفكر والحياة الخاصة بالمسلمين في العالم الحديث وتحديد علاقة الإسلام بهذه المشاكل.

والمعهد يحاول تحقيق هذه الغاية عن طريق عقد ندوات متخصصة للعلماء المشتغلين ببحث المشكلات التي يهتم بها الإسلام، وعن طريق تكليف أهل التخصص بإعداد مؤلفات علمية، وتوفير منح دراسية للمساعدة في البحث ثم نشر هذه المؤلفات بين المهتمين من العلماء في أنحاء العالم.

المعهد مؤسسة مستقلة غير ربحية وليست تابعة لأية دولة أو منظمة هدفها الوحيد الذي تتقيد به هو خدمة الثقافة الإسلامية وهو يرحب بالتعاون وبالمساهمة من أي جهة مهتمة بالفكر الإسلامي وتراثه وتقدمه ومستقبله.